هادي المُدرّسي

الرّدّ على كتاب «الآيات الشيطانيّة»

الرّدّ على
كتابِ «الآياتِ الشّيطانيّة»

هادِي المُدرِّسي

الرَّدّ على كِتابِ «الآياتِ الشَّيطانِيّة»

الموزعون الوحيدون لجميع أقطار العالم
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

COUNTERSTATEMENT
TO
«THE SATANIC VERSES»

الطبعة الأولى

شباط (فبراير) ١٩٨٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هدي من القرآن

﴿ إن اللّه وملائكته يصلّون على النبي يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه، وسلِّموا تسليماً﴾.

(الأحزاب: ٥٦)

* * *

﴿ ومنهم الذين يؤذون النبيّ . . . والذين يؤذون رسول اللّه لهم عذاب أليم ﴾.

(التوبة: ٦١)

﴿ ولئن سألتهم ليقولُنَّ إنما كنّا نخوض ونلعب قل أباللّه وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾.

(التوبة: ٦٥)

دعاء

الحمد للّه..

والصلاة على رسول اللَّه، أمينِ اللَّه على وحيه، وعزائم أمره، الخاتم لما سبق والفاتح لما استُقبل، والمهيمن على ذلك كلّه.. وعلى أهل بيته الطاهرين. وأصحابه المنتجَبين، ورحمة اللّه وبركاته.

اللَّهم إني آمنتُ بمحمّد ـ ص ـ ولم أره، فلا تحرمني يوم القيامة رؤيته، وارزقني صحبته، وتَوَفَّني على ملّته، وأسقني مـن حوضه مشرباً رويًّا سائغاً هنيئاً لا أظمأ بعده أبداً، إنك على كل شيء قدير.

اللهمَّ إني آمنت بمحمد ـ ص ـ ولم أره فعرِّفني في الجنان وجهَه.

اللهمَّ بلّغ محمداً ـ ص ـ مني تحية كثيرة وسلاماً يا أرحم الراحمين.

المقدّمة

إنني من أحفاد النبي محمد ـ ص ـ ولكنّني لا أكتب ردًّا على «الآيات الشيطانية» من أجل ذلك فحسب، وإنما لأنني وجدتُ في هذا الكتاب تجنّياً على الحقيقة، وتطاولاً على القيم الروحيّة، واستغلالاً لحرّية التعبير ضد حرّية المعتقد، وللرأي ضدّ الإيمان، ولحقوق الإنسان ضدّ حقوق الناس، كما أن فيه استخداماً لِنِعَم اللّه من قِبَل شخص عاصٍ، للنيل من كرامة المؤمنين به.

فكان لا بدّ لي أن أردّ.

غير أن الكتاب ليس ردًّا بالمعنى الحرفي للكلمة، لأنّني لن أُسِفَّ إلى المستوى الذي أسَفَّ إليه «سلمان رشدي»، في السبّ والشتم والكذب والافتراء. وإنما هو مجرّد توضيح لبعض النقاط التي يجب توضيحُها في هذا الموضوع. وإلاّ فإنّ التاريخ لن يكتب عن هذا الكتاب وعن مؤلفه غير سطر واحد: «إن الرجل سبّ الأنبياء والصدّيقين، فتألّم الناس لذلك،

واحتجّوا عليه . . » . ولن يكون له موقع إلّا في مقدمة السَّفِلة في العالم .

وإنني أستميح القارىء عذراً إذا نقلتُ بعض مقاطع من «الآيات الشيطانية» في هذا الكتاب ، فناقل الكفر ليس بكافر ، وإنما أردتُ أن أعرّف القارىء الكريم بمحتوى الكتاب ليُدرك ما فيه من كذب وتَجَنٍّ وإسفاف . وأستغفر اللّه لذلك ، وهو من وراء القصد .

هادي المدرّسي
٦ شعبان / ١٤٠٩ هـ
١٣ مارس / ١٩٨٩ م

لماذا يُجِلّ المسلمون رسول اللّه؟

للنبي محمد ـ ص ـ قوة لا تُقهر في هذه الأرض، وهي قوة ذات تأثير يوميّ في حياة المسلمين، كما أنها ذات تأثير سياسي على مجمل الأحداث الدولية.

والواقع أننا لا نستغرب ردّة الفعل العارمة، والتعبئة الروحية التي حدثت على المستوى العالمي ضد التطاول على شخصية النبي، وعلى صحابته. وفي الحقيقة فإن الذين وقفوا وراء تأليف كتاب «الآيات الشيطانية» ونشره نسوا أن اللعب بنار الأديان السماوية، ليس عملية سهلة. فإذا كان البعض لا يحترم نفسه، فإن المؤمنين باللّه يحترمون مقدّساتهم، خاصة وأن هؤلاء المؤمنين ليسوا على باطل لكي يخشوا الحق، ولا هم في قلة لكي يخشوا الآخرين.

إنّ الإسلام صرح حضاري لن ينهار بتناوش المتطفلين عليه.

والمسلمون عدد متزايد، ينتشر في كل دولة ومدينة وقرية.

وقد أفاد الديموغرافيون الأميركيون مؤخراً أن عدد المسلمين في العالم قد يتضاعف في غضون الفترة الممتدة حتى العام ٢٠٢٠، فترتفع نسبة المسلمين من ١٨٪ إلى ٢٥٪ من سكان العالم.

وأشار الخبْراء في تقرير لهم نشر بتاريخ ١٧/٢/١٩٨٩ في واشنطن إلى أن المسلمين يتمتعون بمعدل التزايد الأكثر ارتفاعاً بين سائر الأديان. وتفيد التقديرات أن في العالم اليوم ٩٨٠ مليون مسلم من أصل ٥,٢ مليار نسمة. وحسب التوقعات للعام ٢٠٢٠ فسوف يرتفع عدد سكان العالم إلى ٨,٦ مليار نسمة في حين سيكون عدد المسلمين قرابة مليارين[1].

ويكفي أن نعرف أن عدد أحفاد رسول اللّه، من الذين ينتسبون إليه، يتجاوز العشرين مليوناً، فلو أنّهم شكّلوا حلفاً لهم، لزاد عدد المنتمين إليه على عدد اليهود في العالم كلّه.

تُرى.. هل يصحّ بعد ذلك، أو يجوز، أو يمكن التطاول على مقام رسول الإسلام، وشتم أعراضه؟

ثم يجب أن لا ننسى أن المسلمين إذ يؤمنون برسول اللّه - ص - ويحبونه، فليس ذلك عن جهل، بل عن معرفة ودراية كاملتين، فتاريخ النبي محمد - ص - ليس مجهولاً

---

(١) جريدة «السفير» اللبنانية، تاريخ ١٨ فبراير ١٩٨٩.

لديهم، وهم يحفظون الكثير من قصصه، وكلماته، ويعرفون الكثير من التفاصيل عنه.

وهم إذ يحبونه فلأنهم يجدون فيه «القدوة الحسنة» التي تثير فيهم الكوامن الخيّرة، وتردعهم عن كل ما هو قبيح.

ولا بد أنهم يُصدمون من أعماقهم حينما يجدون أن من يعرفونه تمام المعرفة نقياً صالحاً، يُضرب به المثل في الشر!

وأن مَن عُرف في التاريخ بالصادق الأمين، يُضرب به المثل في الكذب والدجل!

وأن من يعرفونه مثالاً للزهد والتقوى والعبادة، يُضرب به المثل في حب الجنس!

وأن من ضحّى للناس بحياته، وحياة المقربين إليه، يُضرب به المثل في الأنانية!

وقد يتساءل بعض الأجانب عن هذا التعلق الرائع بالنبي محمد ـ ص ـ من قِبَل المسلمين. ولذلك فنحن نورد بعض صفاته ـ ص ـ هنا وهو نموذج بسيط عن عظمة هذا النبي في روحه وأخلاقه ومواقفه وأعماله، وهي عظمة تُرغم الإنسان على أن يُطأطىء لها رأسه إجلالاً، ويعشقها بضميره ووجدانه.

إنها البطولة في أجلى صورها،
والكرامة في أنقى جواهرها،
والحبّ في أصفى مراميه،
والخير في أوسع معانيه،

فكيف كان رسول اللّه؟ وماذا يقول التاريخ عنه؟ هذا ما سنعرض له في القسم الثاني من الكتاب، بعد أن نثبت جملة أمور وحقائق تتعلّق بكتاب «الآيات الشيطانية» وبمؤلّفه وبما ينبغي القيام به حيال أمثال هذا الكتاب.

حقائق أساسيّة ينبغي تقريرُها

هنالك ثلاثة حقوق يتداخل بعضها في بعض. ويكمل بعضها بعضاً، وهي:

حقوق الله.. ومنها حقه في أن يُعبد في الأرض.

وحقوق الناس.. ومنها حقهم في أن تُحترم عقائدهم وتوجهاتهم.

وحقوق الإنسان الفرد.. ومنها حقه في أن يفعل وأن يقول ما يؤمن به، من غير ضغط، أو تطاول، أو مصادرة.

وفي العصور الوسطى قديماً، صودرت حقوق الناس، وحقوق الإنسان بآسم حقوق الله. وفي العالم الشيوعي، صودرت حقوق الله وحقوق الإنسان بآسم حقوق الناس. فهل يجوز اليوم أن تصادر حقوق الله، وحقوق الناس بآسم حقوق الإنسان؟

إن هنالك من يؤمن بأن «ما للّه . للّه. وما لقيصر لقيصر».

فهل يجوز أن نصادر «ما للّه» لنعطيه ليس «لقيصر» بل لساقط مثل سلمان رشدي؟

وما دمنا نسعى إلى تجنّب العنف والإرهاب، فإن من الضروري أن نمنع تلك الشرارات التي تؤدّي، من حيث نريد، أو لا نريد، إلى العنف والإرهاب.

فأنت إذا قمت بسبِّ الآخرين، فلا بد أن تتوقع ردّة فعلهم، وهي قد تكون سبًّا بسبّ، ولربما كانت صراخاً مع سب، وقد يضاف إليها صفعة قوية أيضاً.

أليس من الأسهل إذن، أن نتجنب ردّات فعل الآخرين بأن نمتنع من إثارتهم على باطل؟

في البدء كانت الكلمة.

ولكنها حتماً كانت كلمة طيبة. إذ لو كانت كلمة خبيثة، فإنها بلا شك لم تكن تنتهي إلى شيء.

أفليست هذه الحضارة العظيمة التي نعيشها هي نتاج كلمات الخيّرين من البشر؟

أم تُرى أنها كانت نتاج سباب أولاد الشوارع، وشتم الدجّالين وأصحاب المصالح الدنيئة؟

وليس من الصحيح اختلاق معركة وهمية بين «الحرية

الشخصية» وبين «القيم التي جاء بها الأنبياء».

إن الحرية، والعدالة، والصدق، واحترام الآخرين، والإيمان، والقيم الروحية، هي بمجموعها أساس الحضارة. وإن فقدان واحدة من هذه القيم يعني وجود ثغرات واسعة قد تؤدي إلى سقوط الحضارة كلّها.

ويمكننا هنا أن نقرّر جملة من الحقائق التي تعيننا على تناول الموضوع والتصدّي للمتطاولين على الحُرُمات والأديان. فمن هذه الحقائق ما يلي:

أولاً:

إن المؤمنين بالله يعتقدون أن إيمانهم ليس رخيصاً، والحفاظ عليه ليس سهلاً لأنهم، في الأساس، لم يحصلوا عليه إلا بالتضحيات الجسام.

من هنا فإن المؤمنين يشعرون أن إيمانهم يتعرض، بين فترة وأخرى للتهديد، ولكنه قد لا يكون تهديداً بالقمع، والقتل، بل بالنظرية والفكر.

أليست الشيوعية نظرية؟

أليست النازية نظرية؟

أليست العنصرية نظرية؟

فكيف يمكن الطلب من المؤمنين أن يصمتوا على تطفل المتطفّلين، من الكذبة والسبّابين؟

صحيح أن الفكر يجب أن يقارَع بالفكر، والسيف يجب أن يواجَه بالسيف، ولكن إذا وقف السيف يحمي الكفر، فماذا الذي يمكنه أن يحمي الإيمان؟

ثانياً:

إنه لا يبقى لنا شيء إذا نفينا قدسية الأنبياء وسمحنا لأنفسنا بالتطاول عليهم والافتراء على تعليماتهم.

إن «فراغ القوة» في الروح أشد خطراً من «فراغ القوة» في السياسة.

وسحق الضمير يؤدي إلى فقدان وَخَزاته، ومن ثم دَفْع صاحبه إلى الظلم بدم بارد، والقتل بدم بارد، وارتكاب كل الجرائم بدم بارد.

وإن مهمة السياسيين، بالإضافة إلى اهتماماتهم بملء فراغات القوة في الجانب السياسي، أن يمنعوا فراغ القوة في الجانب الروحي أيضاً.

ثالثاً:

إن أي مجتمع يعيش على الكذب ينتهي به الأمر إلى أن

يصبح ضعيفاً جداً في وجه الحقيقة. وإن كلمة واحدة عن الحقيقة في مجتمع مثل هذا ستكون بمثابة شعلة تُلقى في برميل بارود. وإن أكذب الكذب هو الكذب على الأنبياء، لأننا إذا لم نحافظ على حرمة الأنبياء فلن نحافظ على حرمة أحد. وإذا سمحنا لأي فرد أن يكذب على النبي ـ ص ـ، وأعطيناه على ذلك جائزة مادية، وحماية معنوية، أفلا نكون نشجّع على خلق مجتمع قائم على الكذب؟

رابعاً:

إن الحرية لا تتجزأ. وهي متساوية للجميع، وليس لأحد أن يتطاول على حريات الآخرين.

وإن الحرية لا تتلخّص في حرية السفر، والكتابة، وإبداء الرأي، وممارسة الجنس ـ كما قد يراها البعض ـ بل إنها تشمل أيضاً حرية المعتقد، وحرية العبادة، وحرية الإيمان، وحرية عدم تعرّضي للاتّهام والاستهزاء إذا مارستُ حريتي.

إن هنالك أكثر من ٨٥٠ مليون إنسان فيهم الطبيب والمهندس، والمفكر والصحفي والكاتب ورجل الدين، والطالب، والعسكري، والرئيس، والخبير الاقتصادي، وكل فئات المجتمع، يؤمنون بالله ربًّا، وبمحمد نبيًّا، وبالكعبة قبلةً، وبالقرآن وحياً من الله، وبالملائكة كمقدَّسين، فهل

يجوز أن نتهمهم جميعاً بأن عبادتهم هي ممارسة العهر، وأن نبيهم مجرد كذّاب، وأن «قرآنهم» آيات الشيطان. وأن كعبتهم بيت دعارة، وأن ربهم إبليس؟

خامساً:

إننا بحاجة إلى الإيمان. كما أننا بحاجة إلى الأمن، وكلاهما أرضية التطور في المجتمع الصالح. إن الإيمان كفاح الروح، كما أن الأمن كفاح الجسد وكلاهما كفاح مقدَّس.

وإن الحرية الإيمانية يجب أن تبقى آمنة حيثما وجدت، آمنة ضد العدوان الفكري، كما يجب أن تبقى آمنة ضد القمع.

* * *

لقد قال ماركس: «الدين أفيون الشعوب».

تُرى ماذا يختلف كلام رشدي عن هذا الكلام اللهمّ إلا أن هذا الأخير وضع كلامه في قالب أكثر قذارة، وأفظع محتوى، ولكنه أقل شجاعة، حيث وضع كلامه في قالب سُريالي رمزي.

وهناك خير وشر في الوجود.

وكما يدّعي سلمان رشدي، فإن كتابه يدور حول هذه الفكرة، والسؤال المطروح هو: هل إن عمل رشدي خير أم شر؟

وهل هو عمل لأجل الخير، أم لأجل الشر؟

وهل نتيجته جاءت خيراً أم شرّاً؟

تلك أسئلة لا بد من الإجابة عليها قبل الحكم للرجل أو عليه.

وأعتقد أن الإجابة عليها باتت واضحة لا تحتاج إلى مزيد من البيان.

إن التعالي مرفوض، وفي عالم التفاهم يجب على كل طرف أن يحترم قِيَم الأطراف الأخرى، كما أن على تلك الأطراف أن تحترم قِيمَه. ولا بد أن نعرف أن «القيم» عند البعض مثل «القانون» لدى الحكومات، سواء بسواء.

فإذا كان قانون بريطانيا مثلاً يحدد حرية فرد معين ويأمر باعتقاله لمخالفته للقانون، فإن على كل فرد أن يحترم قيم الآخرين. أما إذا لم يفعل فإن حريته تبقى غير محترمة.

ثم كيف يمكن التفاهم بدون احترام متبادل؟

إن كتاب «الآيات الشيطانية» يتعرّض بالاستهزاء والدسّ والافتراء للإيمان بالله، كما يتعرّض للإيمان بالأنبياء وللإيمان بتعليمات الرُّسُل.

وهي عند كثيرين قُدْس الأقداس..

كما أن الحرية الشخصية عند البعض قُدْس الأقداس..

فكيف يكون «قُدْس أقداس» البعض محترماً، و«قُدْس أقداس» الآخرين مباحاً؟

تساؤلات لا بدّ منها

هل يحقّ لكاتب أو مؤلف أن يقف في وسط الشارع ليسبّ ويتّهم أحد المارّة بالكذب والدَّجَل أو بالسرقة والاعتداء، في قالب قصيدة شعريّة أو مقطوعة أدبيّة، ثم لا يحقّ للمعتدَى عليه أن يردّ على الشاتم لمجرّد أنّه أديب أو قصّاص، أو لمجرَّد أن اتهاماته جاءت في أسلوب أدبي محض؟

وإذا لم يكن ذلك وارداً، أفهل يحقّ لأيّ مؤلّف أن يتناول بالسبّ والافتراء الأنبياء والرُّسُل، وكلَّ الصدّيقين في التاريخ؟

ثم إذا كان شرف الشخص الواحد مقدَّساً لا يجوز التطاول عليه، فكيف يكون شرفُ أمّة مؤمنة بأكملها، مباحاً لكل من هبّ ودبّ، تحت شعار حرّية المعتقَد؟

بالطبع لا يمكن إلا أن نكون في صف حرية الرأي وحرية التعبير ولكن هل هذه الحرية مطلقة تبيح لأي كاتب أن يسعى لتشويه صورة من يشاء، حتى ولو كانت تلك الشخصية بحجم النبي محمد ـ ص ـ، أو أن يسعى لتشويه دين، حتى ولو كان هذا

الدين بحجم الديانة الإسلامية؟

ثم هل مهمة الأدب تجميل الحياة وكشف روعة مكنوناتها، أم أن الهدف منه تشوية القيم والمثل والأديان وحَمَلة الرسالات؟

هل الحرية تعني أن يصوَّر محمد كما صُوّر في «الآيات الشيطانية» وأن يصوَّر المسيح كما صوِّر في فيلم «الإغراء الأخير للمسيح»، وأن يصوَّر موسى كما صوّره «ميل بروكس» في فيلمه الشهير؟

ثم ما قيمة الحضارة البشرية، إذا ما نجح كتّاب معيّنون - تحت شعار حماية «حرية التعبير عن الرأي» - في تشويه مثل هذه الحضارة وقيمها وشخصيات بُناتها؟

وإذا كان من حق أي كاتب مناقشة أي من العقائد أو المفاهيم، مهما تطرّف في تفسيراته، فهل إن من حقّه إلقاء التهم يمنةً ويسرةً، وتلفيقها، وإهانة هذه العقائد وقادتها؟

وهل هنالك فرق بين النقد والافتراء؟

وكيف تُجيز دول كثيرة بما فيها بريطانيا أن تفرض قيوداً على صدور العديد من الكتب بحجة أنها تمسّ هيبة الدولة، ثم تسمح بنشر الكتاب الذي يمسّ هيبة ديانة عظيمة تحت غطاء حرية التعبير؟

وإذا كان الدفاع عن الحرية أمراً مقدَّساً، أفليس الدفاع عن رموز الحضارة البشرية ـ أساس هذه الحرّية ـ أمراً أشد قداسةً؟

ثم لماذا اختيار النبي محمد ـ ص ـ واختيار العقيدة الإسلامية في تصوير الصِّراع بين الخير والشرّ؟

وأخيراً: هل لنشر هذا الكتاب ارتباط بمحاولات قمع الانتفاضة الفلسطينية التي بدأت تهزّ الضمير الغربي الراقد منذ نصف قرن؟

محتوى كتاب «رشدي»

قبل أن نستعرض بعض ما جاء في الكتاب، ونحكم له أو عليه، لا بدّ من تحديد المقياس الذي نعتمده في ذلك. فنحن نرى أن أمرين أساسيين يجب أخذُهما بعين الاعتبار في تقييم أي عمل يصدر من الإنسان:

أولاً ـ مدى تطابقه مع الحقّ.

ثانياً ـ مدى تأثيره الخيّر في الواقع الخارجي.

وهذا يعني أن «المحتوى» وليس «الإطار» هو الذي يتمّ التقييم على أساسه، فقد يكون «عمل شرّير» موضوعاً في قالب جميل، أو قد يكون لعمل جميل تأثير سلبي فيما يتعلّق بالخير والشرّ...

تُرى.. أيُّهما يجب الانسياق وراءه: «ذوق» الإنسان، أم «ضميره»؟

وأيّهما الأجدر بالاحترام: تذوّق الجمال، أم المبدأ الأخلاقي؟

وأيّهما الأفضل: الالتزام بالمُثُل والقِيَم، أم محاربتها؟

ويمكننا القول هنا بأن هناك، بصورة عامة نموذجين من المجتمعات:

نموذج يقوم فيه النشاط أساساً على الدوافع الجمالية.

ونموذج يقوم فيه النشاط على الدوافع الأخلاقية أولاً.

وهذا الاختلاف الأساسي ليس مجرد اختلاف شكلي. إنه يؤدي إلى نتائج تاريخية ذات أهمية كبيرة، فالنموذجان اللذان يختلفان هكذا، بسبب اختلافهما في ترتيب عناصر الثقافة لا يتطوران في اتجاه واحد، بل إنه في بعض الظروف تنشأ بينهما تناقضات جذرية، حتى إن الأمر الذي لا يريد أحدهما ـ بل ولا يمكنه أن يريد ـ تحقيقه لسبب أخلاقي، نرى الآخر يحقّقه لسبب جمالي.

والاختلاف هذا يعود إلى الأصول البعيدة، فالثقافة الغربية قد ورثت ذوق الجمال من التراث اليوناني الروماني، أما الثقافة الإسلامية فقد ورثت الشغف «بالحقيقة من بين ميزات الفكر السامي»[1].

و «تبرز أهمية الفن الجميل في أحد موقفين: فهو إما داعٍ

---

(١) «شروط النهضة» لمالك بن نبي، ص ٩٩.

إلى الفضيلة وإما داعٍ إلى الرذيلة»[1]. إننا لا نرى جمالاً للقتلِ، حتى وإن جاء بطريقة جميلة، ولا نتذوق العدوان، حتى وإن جاء في قالب عمل رائع، ولذلك لن نحترم الأدب إذا كان داعياً لنبذ القِيم، ولن نرتاح لقصّة تجرح كبرياءنا، حتى وإن أراحت أذواقنا؟

فالكذب يبقى كذباً حتى في قالب الصدق.
والعُهر يبقى عُهراً حتى في قالب الطُّهر.
والاحتيال يبقى احتيالاً حتى في قالب القانون.

لقد قال أحد النقاد الإنكليز عن كتاب «رشدي»: «إنه عمل ممتع بشكل لعين، وعَبقرية شيطانية»[2]. ولكننا لا نستطيع أن نفهم هذه العبقرية، وإلّا فكيف نردّ عبقرية «هتلر» وذكاء «غوبلز»، وشجاعة كلّ القتلة في التاريخ؟ بل لماذا نرفض إبليس؟

لقد صدق ربُّنا الذي قال: ﴿ ولئن سألتهم ليقولُنَّ إنما كنّا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾[3].

ونعود إلى التساؤل: ماذا في الكتاب؟

ربما كان عنوان الكتاب كافياً لمعرفة ما فيه، ولكن ما جاء

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٥.
(٢) *London Review of Books*, Oct., 1988.
(٣) سورة التوبة، الآية ٦٥.

في داخله هو أكثر بشاعةً من عنوانه بكثير.

ففي ٥٤٧ صفحة و ٢٥٠ ألف كلمة تقع رواية تحمل عنوان *The SATANIC VERSES* وهـي مـن منشـورات Viking Penguin . وقـد ألّفها صاحبها بطريقة ما يُصطلح عليه «بالواقعية الأُسطورية» Magic realism حيث يُمزج الخيال بالواقع، من غير أن يكون فيه أيّ فكر، أو ثقافة، أو حتى إبداع. كل ذلك بأسلوب يكاد يضيع معه الفارق بين «الروائي» و «التاريخي». فأسلوب رشدي سُريالي إلى حد بعيد، لا يسمي الأشياء باسمها بل بأسماء مشابهة. الوصف عنده غير ثابت أو نهائي، والشك يحوم حول كل شيء. ويستعمل رشدي الكثير من التعابير العربية والهندية والشعبية الإنكليزية بشكل لاذع وبلغة نابية أحياناً.

وتضم الرواية ثلاث شخصيات رئيسية هي:

ممثل هندي يُدعى «جبريل فاريشتا» (وفاريشتا تعني الملاك في اللغة الأوردية).

ومنفيّ هنديّ اسمُه «صلاح الدّين شمشة» (وشمشة تعني المتملّق باللغة الهندية).

و«ماهوند» Mahound[1] (وهي كلمة مرادفة في المعنى

---

(١) هو الاسم الذي استعمله المبشّرون في العصور الوسطى للإشارة إلى رسول الله محمد ـ ص ـ.

لإبليس)، ويصوّره رشدي كنبي من مدينة صحراوية، يسمّيها «جاهلية»، وهي مدينة لرجال الأعمال (يقصد بها مكة المكرّمة).

تبدأ الرواية في الجوّ، حيث يلتقي جبريل وصلاح الدّين على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية الهندية AIR INDIA وتتعرّض الطائرة للاختطاف، ثـم يَنتهـي الأمر بتفجيرها فوق القناة الإنكليزية من قِبَـل الخاطفين، ويموت الجميع، إلاّ أن جبريل وصلاح الدين يُعاد بعثُهما من جديد في شكل تناسخ للأرواح «فلكي يعاد بعثُك يجب أن تموت أولاً...»، هكذا تقول الرّواية.

ثم تصوّر الرواية تغييرات روحيّة وجسميّة في كل من جبريل وصلاح الدين، فجبريل يرى هالةً من نور حول رأسه، بينما يرى صلاح الدين قروناً في رأسه، وذيلاً في ظهره، وشعراً كثيفاً على جسمه كلّه، فيصبح أقربَ إلى ماعز وحشيّ منه إلى إنسان.

وتصف الرواية كيف تسقط هاتان الشخصيتان معلَّقةً إحداهما بالأُخرى وهما ينشدان أناشيد متعارضة. ومع التغيرات الجسمانية، تتغير روحاهما أيضاً وتضيع هوّيتهما وتتداخلان.

وعلى الشاطىء الإنكليزي، حيث سقطا، تفتح لهما امرأة

عجوزٌ باب بيتها، ولا تلبث الشرطة أن تقرعه مرةً ثانية لتعتقل «صلاح الدين» بتهمة دخول البلاد بشكل غير شرعيّ، فيتعرّض للتعذيب من قِبَلهم. وهنا يبدأ الصراع في دماغه بين الشرق والغرب. أمّا «جبريل» فيحكمه هاجس آخر هو: الشكّ واليقين.

ثم إن «جبريل» يعيد رؤية ولادة الإسلام في حلمه، وهنا يدخل مدينةً في وسط الصحراء والرِّمال اسمها «جاهلية»، وهي، كما تصفها الرواية، مدينة دائرية الشكل يملأها الفساد، ويعبث فيها السارقون والعاهرات، وتعيش من المردود الذي تجلبه الأصنام باجتذابها لقوافل التجار، وهي مدينة تكره الماء والسقائين لأنها مبنيّة من الرَّمل.

ويتابع «جبريل» حلمه ـ بعد أن أصبح الملاكَ «جبريل» ـ فيروي بدايات الدعوة مستعملاً عباراتٍ نابيةً أحياناً، ومشكِّكاً متسائلاً بشكل دائم حول مصير الدعوة.

وفيما يلي بعض المقتطفات من الكتاب.

فممّا تذكره الرواية عن مدينة الجاهلية نقتطف ما يلي:

● «رجل الأعمال الذي يتحول إلى نبيّ، واسمه ماهوند، يقوم بتأسيس أكبر الأديان في العالم. هناك صوت يهمس في أذنه: أي نوع من الفكر أنت؟ إنسان أم جُرَذ؟»[1].

---

(١) الآيات الشيطانية، ص ٩٥.

● «البطريرك إبراهيم قَدِمَ لهذا الوادي مع زوجته هاجر، وابنهما إسماعيل. هنا في هذه المنطقة الموحشة يهمل زوجته. سألته:

هل يمكن أن تكون هذه رغبة الإله؟

فيجيب: نعم هذه هي رغبة الإله.

ثم يذهب ابن الزنا هذا»[١].

● «هناك السقّاء خالد، وعربيد من فارس باسمه الغريب سلمان. وحتى يكتمل هذا الثالوث في الغثاء هناك العبد بلال، الذي حرّره ماهوند، وهو وحش شديد السواد»[٢].

● «عاش المؤمنون بلا قانون، ولكن في هذه السنين فإن ماهوند ـ أم بالأحرى أن نقول الإله الواحد رئيس الملائكة جبريل، أم الأولى أن نقول الله (ALLAH) ـ أصبح لديه وسواس وضع القوانين. ظهر جبريل للنبي، فوجد نفسه يطلق أحكاماً وأحكاماً،

حتى وصل المؤمنون لحدّ لا يستطيعون معه تحمّل أيّ وحي جديد إلا بعناء كبير، عندها قال سلمان:

أحكام على كل شيء؟ يا للعنة! إذا أخرج الإنسان ريحاً

---

(١) نفسه، ص ٩٥.
(٢) نفسه، ص ١٠١.

فليُدِرْ وجهه للرياح، حتى يحدّد أيّ اليدين يستعمل لتنظيف مؤخّرته»[1].

● «قال الوحي للمؤمنين: كم يأكلون؟ كم ينامون؟ وأيّ الأوضاع الجنسية قد حُرِّمت، حتى تعلموا أن اللواطة، ووضع الجماع المباشر، قد أُقِرّا من قِبَل رئيس الملائكة»[2].

● «وقد حدّد جبريل، رئيسُ الملائكة، أسلوبَ دفن الإنسان، وكيف تقسَّم ممتلكاته، حتى إن سلمان الفارسي أخذ يتساءل: ما أسلوب الإله هذا الذي يبدو تماماً كأنه رجل أعمال»[3].

● «وأخيراً كان الذي أنهى علاقة سلمان بماهوند هي قضية النساء والآيات الشيطانية». أفضى سلمان ما في نفسه وهو مخمور: «اسمع، أنا لست ممّن ينهمك في القيل والقال، ولكن ماهوند بعد وفاة زوجته لم يكن ملاكاً، أنت تفهم ماذا أقصد، وهناك في يثرب التقى بمن يوافقه، بينما نسوة يثرب حوَّلن نصف لحيته إلى بياض في مدة سنة»[4].

وممّا جاء في الرواية عن «الحجاب» قوله إن «الحجاب هو

---

(١) نفسه، ص ٣٦٣.
(٢) نفسه، ص ٣٦٤.
(٣) نفسه، ص ٣٦٤.
(٤) نفسه، ص ٣٦٦.

اسم لأشهر بيت للدعارة في مدينة الجاهلية». ثم يصف المؤلّف البيت وصف قصور الجنة كما تَرِدُ في القرآن، كقصر تجري من تحته الأنهار فيه أعناب ونخيل... ويتبيّن من مجريات الرواية أن ذاك البيت هو لمجموع اثنتي عشرة امرأة «عاهرة» طلبن من «ماهوند» أن يتزوجهن وأصبحن زوجاته وأصبح اسمه هو «بطل». وكانت تسمَّى إحداهن «عائشة» والأُخرى «أمّ سلمة»... «لم يكن من اللائق أن يقف الرجال (أي الزبائن) بالصفّ على طول الشارع (انتظاراً لدورهم)... لهذا فهم كانوا يدورون حول نبع الحب الواقع في قلب بيت الدعارة، كما يدور الحجّاج لأسباب أخرى حول الحجر الأسود القديم».

وتحكي الرواية أيضاً في أحد الفصول أن ماهوند أو بعل، كان يتعرّض لنفس الحالات النفسية والروحية التي مرّ بها الرسول محمد عند نزول الوحي عليه، «فالشعر الذي يراوده في هذه الحالة هو من أعذب ما كتب. ذلك أنه من وقت لآخر، خاصة عندما يكون عند عائشة، كان يشعر بالارتخاء والانحلال يجتاحه. فيشعر بالثقل وبأن عليه أن ينام. وكان يقول لها (أي لعائشة): «غريب. أشعر وكأنني واقف إلى جانب نفسي، فيمكنني عندئذ أن آمر ذاك الذي يقف إلى جانبي بأن يتحدث، ثم أنهض وأكتب الآيات».

كما يتطرّق الكتاب إلى سلمان الفارسي الذي ينعته «بالناسخ» الذي يشوّه ما ينصّه عليه ماهوند من دون أن يشعر هذا الأخير بذلك.

وعن سلمان الفارسي تقول الرواية إنّه «عندما كان ماهوند ينصّ عليّ آية ما يوصف فيها الله بالسميع العليم، كنت أكتب العليم الحكيم. والمشكلة أن ماهوند ما كان ليكشف التزوير الحاصل. وكنت بالتالي أكتب الكتاب وأعيد كتابته، مشوّهاً بذلك كلام الله بكلامي الفاني». ويقول في موضع آخر: «فالرسول لا وقت لديه للتشكيك والتأكد فهو ليس ملاكاً».

وفي بعض مواضع الكتاب اتهام لرسول الله ـ ص ـ بالشذوذ الجنسي!

أما فيما يتعلّق بالآيات، فهي، كما جاء في الكتاب، تتداخل على «ماهوند»، فقد يوحي بها جبريل مرّة، وقد يوحي بها إبليس مرّة أخرى. فجبريل أوحى إليه ﴿أفرأيتم اللات والعُزّى. ومناةَ الثالثةَ الأُخرى﴾ (النجم: ١٩ ـ ٢٠)، وإبليس كمّلها بقوله: «تلك الغرانيق العُلى وإن شفاعتهنّ لَتُرتجى»[١].

ثم تنتقل الرواية إلى القرن العشرين، حيث يصادفنا «إمام عيناه بيضاوان كالغيوم»، يقول مؤذّنه: «سنقوم بثورة ضد

(١) نفسه، ص ١١٤ ـ ١١٥.

التاريخ والتقدم والعلم والحقوق». . . «التاريخ انحراف عن السبيل، المعرفة سراب، لأن مجموع المعرفة كان تامًّا يوم أتمَّ الله رسالته إلى ماهوند».

وحين يأخذ الإمامُ جبريلَ ليريَه شبّاناً يسيرون لتعدمهم الثورة بالرصاص يقول: «أترى كم يحبونني. ما من سلطة مستبدّة على الأرض تستطيع تحمّل قوة هذا الحب البطيء السائر».

من هو «سلمان رشدي»

وُلد «سلمان أنيس رشدي» في بوبمباي عام ١٩٤٧ قبل شهرين من استقلال الهند ونشوء دولة الباكستان.

والده مسلم من كشمير، وهو رجل أعمال ثريّ، وكانت العائلة تتكلّم الإنكليزية والأردو في البيت. وكانت الإنكليزية هي الغالبة.

التحق، أوّلاً، بمدرسة تبشيريّة إنكليزيةٌ. وحين بلغ الثالثة عشرة من عمره أرسله والده إلى «روغبي» في بريطانيا، حيث تابع هناك دراسته على أيدي أساتذة غير مسلمين ما تعلّمه من المبشِّرين في الهند.

حين أنهى فترة المدرسة تمنّى على أهله السماح له بالعودة إلى الهند نهائيًّا، إلاّ أن أباه أصرّ عليه أن يلتحق بجامعة «كيمبردج» حيث حصل على قبول لدراسة التاريخ (١٩٦٥ - ١٩٦٨). وفي بريطانيا اصطدم «رشدي» بالعنصرية، وعانى منها باعتبار موطنه، وجنسيته، ولون بَشَرَته.

بعد تخرّجه من الجامعة توجّه «رشدي» إلى الباكستان، وذلك بعد غياب سبع سنوات عن عائلته ـ وكانت حينئذٍ قد انتقلت إلى هناك ـ وحصل على وظيفة في التلفزيون الباكستاني، سرعان ما تركها وعاد إلى بريطانيا حيث عمل في مجالات متعدّدة، واستقرّ أخيراً على احتراف الكتابة.

تزوج مرتين: الأُولى من الإنكليزية «كلاريسا» التي انفصل عنها فيما بعد. والثانية من الأمريكية «ماريان ويغنز»، وهي كاتبة روائيّة صدرت لها مؤخراً رواية تتناول فيها المعتقدات المسيحية بالسخرية والنقد اللاذع.

وقد صدر للمؤلّف حتى الآن خمس روايات، هي:

١ ـ «غريموس» *Grimus* صدرت عام ١٩٧٥.

٢ ـ «أطفال منتصف الليل» *Midnight's Children* صدرت عام ١٩٨١.

وتُعتبر هذه الرواية، بمجملها، ضدّ ثقافة الهند، بما فيها من عادات وتقاليد اجتماعية ودينية، كما أنها تدين بطريقة غير مباشرة نضالات الشعب الهندي ضدّ الاستعمار الإنكليزي، وتدعو «أطفال منتصف الليل» إلى ثورة أخرى هناك.

وتعرّض رشدي في هذا الكتاب لرئيسة وزراء الهند السابقة «أنديرا غاندي». فهو ينقل عن ولدها «سنجاي» أن أمّه

اشتركت في قتل أبيه، مما حدا بأنديرا غاندي إلى إقامة دعوى قضائية ضده لدى المحكمة فربحت الدعوى، وحصلت على اعتذار عامّ من المؤلّف ودار النشر، بالإضافة إلى تحمُّل عامّ نفقات القضية، كما حصلت على حقّ حذف ما تراه غير مقبول من الكتاب.

وقد فازت رواية «أطفال منتصف الليل» بجائزة «بوكر» Booker prize.

والجدير بالذكر أن تلك الرواية تُرجمت إلى ثلاثين لغة، منها الفارسية والعربية والأردو.

٣ ـ العار *Shame* صدرت عام ١٩٨٣.

يتناول «رشدي» في هذه الرواية الحياة في الباكستان، ويدين ثقافة هذا البلد وقيادته أيضاً. وقد مُنعت في وقتها من دخول الباكستان، كما مُنعت رواية «أطفال منتصف الليل» قبلها من دخول الهند.

وهذه الرواية أيضاً تُرجمت إلى لغات عديدة منها الفارسية، كما حصلت في إيران عام ١٩٨٨ على جائزة أفضل قصة مترجمة[1].

---

(١) جريدة اطّلاعات، العدد ١٨٦٩٩، تاريخ ٢٨ فبراير ١٩٨٩.

٤ ـ «ابتسامة الجاكوار» *Jaguar Smile*.

تتناول هذه الرواية تجربة الثورة في نيكارغوا. وكان «رشدي» قد دُعي إلى هناك بمناسبة الذكرى السابعة لانتصار الثورة، ولكنه حينما عاد انتقد تلك الثورة بعبارات لاذعة، منها قوله: «إن كل ثورة تنتهي إلى الخيبة في الآمال. فكل ثورة تقتل أولادها، ثم تتحوّل إلى نفس الشيء الذي كانت هي تحاربه وتناضل ضدّه...».

٥ ـ «الآيات الشيطانية» *The Satanic Verses*.

صدرت هذه الرواية في أكتوبر عام ١٩٨٨. وقد فازت بجائزة «ويزبند».

والجدير بالذِّكر أنّ تقييم «سلمان رشدي» لروايته هذه لا يتعدّى كونها تعبّر عن نظرة إنسان ملحد. وهو في الوقت نفسه لا مانع لديه من أن يكذِّب ويتناقض مع نفسه، فيقول «إنه لا يزال هناك مكان في قلبه.. لله»!

ثم يدّعي أنه ليس ضد الإسلام! فهو يقول في رسالة له إلى رئيس وزراء الهند، بعد منع الكتاب هناك:

«إن الكتاب ليس عن الإسلام! ولكنه عن الهجرة، والانسلاخ، وانقسام الذات، والحب والموت، ولندن،

وبومباي». . . و«إن الكتاب عالج قضية نبيّ ليس اسمُه محمداً». . . . و«إنّ أحـداثَ الرواية تجري ضمن رؤية خيالية لشخصية خيالية»! «في هذه الأحداث التي تجري في الرؤية، أحاول أن أقدم وجهة نظري حول ظاهرة الوحي ومونْد دين عالمي كبير، وإن هذه النظرة تمثل نظرة إنسان ملحد، كان للثقافة الإسلامية، وما يزال، أهمية مركزية طوال حياته»!

* * *

من خلال هذا الاستعراض السريع لحياة الرجل، وفي قراءة سريعة لخلفيات مواقفه تنكشف الأمور التالية:

أولاً: إن الرجل ـ وقد انسلخ عن ذاته ـ يمثِّل شريحة من أولاد المستعمرة الذين يعانون من «عقدة النقص» تجاه مستعمريهم.

فهو الهندي الذي لم يتعلّم ثقافة أُمّته وعائلته إلاّ من خلال الكافرين بها.

وهو المهاجر الذي عاش في المجتمع البريطاني منبوذاً من قِبَل أولاد الإنكليز، مطروداً من قِبَلهم بسبب بشرته، وأرومته، وجنسيته.

ولأنّه لم يتشبّع بثقافة أُمّته، وانسلخ من وطنه، وعائلته، ودينه، فقد حاول دائماً أن يقوم بأيّ شيء ليصبح مقبولاً لدى

المجتمع الغربيّ.

ثانياً: إن الرّجل يعيش حالة من التناقض الحادّ في داخله يعبِّر عنها بالسُّرياليّة تارةً، وبالتناسخ العقائدي والنفسي تارة أخرى. ولأنّه يعتبر أصله وأرومته مصدرَ إزعاج له، فإن الإسلام، عنده، «تهمة» لا بُدّ من دفعها عن نفسه بأية طريقة ممكنة، فلذلك تراه يحاول تبرئة نفسه بشتم أصوله، وكل مقدسات آبائه... لعلّه يحصل على شهادة «عمادة» في المجتمع الغربي، أو شهادة انتماء له.

ثالثاً: إن الرجل، لكونه «شرقيًّا»، يحاول الهروب من كل ما هو شرقي، أو له أيّة صلة به. إن محاولات تقليده لشباب الغرب تدلّ على ذلك، فهو يأخذ من كل مكان أسوأ ما فيه، بما في ذلك مسألة الارتباط بامرأة، ثم الانفصال عنها، ليرتمي في أحضان أُخرى.

رابعاً: إن الرجل يعاني من الشذوذ الفكريّ، كما يعاني من الشذوذ العقائديّ، فهو جريء في إطلاق الكلمات ضد معانيها، كإطلاق «الحجاب» لبيت الدعارة، وإطلاق «الجاهلية» لحضارة الإسلام. وهو أيضاً يبحث عن بعض الروايات التاريخية الشاذة ـ كقصة الغرانيق ـ وكأنه لم يجد في ما يقارب المليوني كتاب عن الإسلام أيّ شيء غير هذه الرواية

المُجْمَع على اختلاقها. والتي بُتّ بها في زمن النبي ـ ص ـ.

خامساً: إنّ الرّجل، لكلّ ما سبق، تحوَّل إلى انتهازيّ من الدرجة الأولى. المهمّ عنده أن يبيع ما يؤلّفه، وأن يكون له صوت بين ملايين الأصوات... أن يكون معروفاً حتى وإن كان ذلك على طريقة من يقتل الأبرياء وينتحر حتى توضع صورته في الجريدة.

وهكذا تجمّعت في الرجل كل الصفات التي تجعله فريسةً جيّدة لاستخدامه ضدّ قِيَم الاستقلال والحرّية والإيمان والإسلام.

ولأنّه ينتمي إلى العالم الثالث، تراه حريصاً على أن تترك رواياته وكتاباته تأثيرها على أبناء هذا العالم.

وإلاّ قل لي بربّك كيف يسمح «رشدي» لنفسه أن يكتب فقط ضدّ أبناء شعبه في الهند والباكستان، ثم ضدّ الثائرين في نيكاراغوا، وضدّ مقدَّسات المسلمين في العالم، ويبرّىء ساحة الاستعمار في التاريخ، ولا نجد له أيّ كلام عن جرائم المستعمرين؟

إنّه «الردّ» الاستعماري على مفكّرين من أمثال «فرانز فانون»، و«ريجيس دوبريه»، وغيرهم من الذين دافعوا عن الشعوب المضطهدة.

الكتاب في الصحافة الدّولية

ليس في نيّتنا استعراض كلّ ما قالته الصحافة عن كتاب «الآيات الشيطانية»، ولذلك نكتفي ببعض النماذج من أقوال الصحف المحايدة، من مختلف الاتجاهات.

تقول مجلة المستقبل التي تصدر في باريس:

«إنّ الغرب يعتبر «حرية المعتقد» قُدْسَ الأقداس، بينما يعتبر الشرقُ «الإسلامَ» قُدْسَ أقداسه؛ فلماذا كان قُدْس أقداسهم محترماً، ولا يكون قُدْس أقداس الآخرين كذلك»؟

وتقول المجلة في عددٍ آخر لها:

«لقد أصبحت قضية سلمان رشدي وكتابه قضية ذات أبعاد دولية وفكرية، وبين حكم الإعدام الذي صدر ضده، والتظاهرات التي خرجت في أنحاء متعددة من العالم، تحوّلت القضية إلى صراع بين الشرق والغرب، وبين مفهومَيْن للحرية الفكرية والدينية يبدوان متعارضين إلى درجة الصدام المباشر. وإذا كان الدم قد سال في الهند وباكستان خلال تظاهرات إدانة

سلمان رشدي وكتابه، ففي الغرب أُصيب الجميع بالصدمة وهم يسمعون في شوارعهم دعوات لتنفيذ حُكم الإعدام برشدي، في المظاهرات التي قامت ضده، وكان لها ردود فعل لدى الأوساط الحاكمة، حيث أصدر رئيس الوزراء قراراً بتحويل أي شخص يدعو إلى القتل في الشوارع إلى المحاكم وعلى أن يصل الحكم ضدّه إلى خمس سنوات سجن»[1]!

وتقول جريدة «اطّلاعات» الإيرانية:

«إن الغربيين كانوا يحاولون دائماً أن يظهروا وكأنهم غير متعصّبين ضدّ الديانات السماوية، ومعتقدات الناس في العالم، وكانت دعاياتُهم تركّز على المعسكر الشيوعي، باعتباره حامل آية «الإلحاد» وجارح كبرياء عقائد الشعوب. ولكنهم مع صدور كتاب «الآيات الشيطانية»، ودفاعهم المستميت عنه كشفوا عن حقيقه ما يعتمل في نفوسهم»[2].

وتقول جريدة «المجاهد» الجزائرية:

«إن دفاع الغرب عن سلمان رشدي، والتدابير الأمنية المتَّخذة للدفاع عنه، والتي تتجاوز التدابير المتخذة للحفاظ على حياة البابا، ثم محاولة ردّ الاعتبار للرجل، والدعاية

---

(١) مجلة المستقبل، العدد ٦٢٨، ٤ مارس ١٩٨٩.
(٢) جريدة اطّلاعات، ١٤ مارس ١٩٨٩.

لكتابه، من قِبَل أولئك الذين يحامون عن إسرائيل، ويدافعون عن جنودها الذين يقتلون الأبرياء كل يوم في فلسطين المحتلّة. . . إن ذلك يكشف عن رياء كبير ونفاق لا حدود له. وعلينا ـ وخاصّة الأزهر ـ أن نستفيق من الرُّقاد تجاه ما يُحاك ضدَّنا وضدَّ قِيَمنا»[1].

وتقول مجلة «الشراع» اللبنانية:

«إن موضوع كتاب «الآيات الشيطانية» يطال الإسلام والرسول بشكل خاصّ، وهو يشمل كلَّ المذاهب الإسلامية، فهو بشكل أو بآخر «قضية مشتركة» تتوحد عليها ضمائر المسلمين، وإن كانت تحفظات الكثيرين منهم لأسلوب الطرح قد ظهرت حول ردة الفعل، ولكن من حيث جوهر القضية يرون أنها قضية «مُحِقّة» بالنسبة للمسلمين ومن صميم عقيدتهم».

وأضافت المجلة تقول:

«ولقد فوجىء بعض المثقفين، بأن كثيراً من المسلمين رأوا في هذا الأسلوب «عملاً جريئاً»، و «رادعاً» في المستقبل. كما أن مسلمين كثيرين أنحوا باللائمة على الدول الإسلامية التي لم تتخذ قراراً حتى الآن بشجب الكتاب أو بحظر توزيعه. وإذا كان لبريطانيا من وجهة نظرها ما يبرّر وقوفها المدافع عن

---

(١) صحيفة المجاهد الجزائرية، ٢١ فبراير ١٩٨٩.

الكاتب بهذه الطريقة «الصِّدامية» مع إيران لدرجة سحب الدبلوماسيين «لأن الكاتب يحمل جنسيتها»، فإن المواطن المسلم العاديّ لا يستطيع تفسير تهديد بعض الدول الأوروبية والغربية مثل ألمانيا الغربية ودول السوق الأوروبية، إلا بعصبيّتها ضد الإسلام نفسه وتحبيذاً لتحقير العقيدة الإسلامية، بدافع من أحقاد «صليبية» دفينة»[1].

وتقول مجلة «الهلال الدولي» التي تصدر في لندن:

«لقد جاءت قضية سلمان رشدي في وقت مناسب جداً. أهم ميزاتها هي أنها لم تبدأ على أعلى المستويات السياسية بين الحكومات وزعماء الدول وإنما بدأت مع مسلمين عاديين وجدوا في محتويات قطعة أدبية مزعومة تجريحاً وإهانة لدينهم ومعتقداتهم.

إن من الصعب تحديد درجة «التآمر» المتعلقة بكتابة هذا العمل التافه وصدوره. الأمر الواضح والأكيد هو أن رشدي، وهو ما اعترف به علناً، فقد إيمانه بالإسلام، دين آبائه وأجداده، أثناء فترة صباه وشبابه التي قضاها في المدارس البريطانية الخاصة وفي جامعة كيمبريج.

ليس في هذا الأمر ما يخرج عن المألوف فهناك كثيرون من

---

(١) مجلة الشراع اللبنانية، العدد ٣٦٢، ٢٧ فبراير ١٩٨٩.

أمثال هؤلاء في كل أرجاء العالم. إنهم الإرث الذي خلّفه لنا الاستعمار الغربي وثقافته الدخيلة»[1].

وتقول مجلة «الأفكار» التي تصدر في لبنان:

«في العالم الآن ٨٠٠ مليون مسلم أغضبهم كتاب رشدي وهو يتهجّم على أكرم الأنبياء وزوجاته الآمنات المحصنات، اللواتي هن في النهاية أمهات المسلمين. فرنسا التي فيها ثلاثة ملايين مسلم لم يمرّ فيها الكتاب هكذا بدون ثورة. ورئيس الوزراء «ميشال روكار» الذي هدّد بمنع كل تظاهرة تطلب دم سلمان رشدي، لم تسمح له ظروفه بقراءة الكتاب، وإلا لكانت حرية الرأي عنده قد اصطدمت بهول ما يقرأ، وكارثة ما جاء في السطور!!

ولا يمكن أن يقول المسؤول الغربي للمسلم ألا يقرأ الكتاب إذا لم يعجبه. هذا كلام غير منطقي وغير مقبول. فالقراءة عند المسلمين عقيدة انطلاقاً من الآية الكريمة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ (صدق الله العظيم). وما صدرت الفتاوى، وقامت الاحتجاجات ضد الكتاب ومؤلفه البالغ الرعونة، إلا لأن العقول قد قرأت، واستفظعت ما قرأته، واعتبرت كتاب رشدي غارة إسرائيلية بالنابالم على كل مواطن

---

(١) الهلال الدولي، العدد الحادي عشر، ١ ـ ١٥ مارس ١٩٨٩.

مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض. ذلك أن الصهيونية هي المستفيدة الأولى من هذا التخريب، والحاضّة عليه، ومن يدري مقدار الثمن الذي قبضه رشدي مقابل هذا الكتاب. وجاءت تظاهرات المسلمين كذلك لتنبه إلى فداحة الجريمة التي ارتكبها رشدي، وإلى ضرورة حماية مجتمعات الأديان كأساس للاستقرار في أي بلد. وساء منقلب رشدي ومن كان على شاكلته، ومعه ظلّ إسرائيل والمارقين»[1].

(١) مجلة الأفكار، العدد ٣٥٠، ٦ آذار ١٩٨٩.

كاريكاتور عن الكتاب ومؤلّفه في الصحافة العربيّة
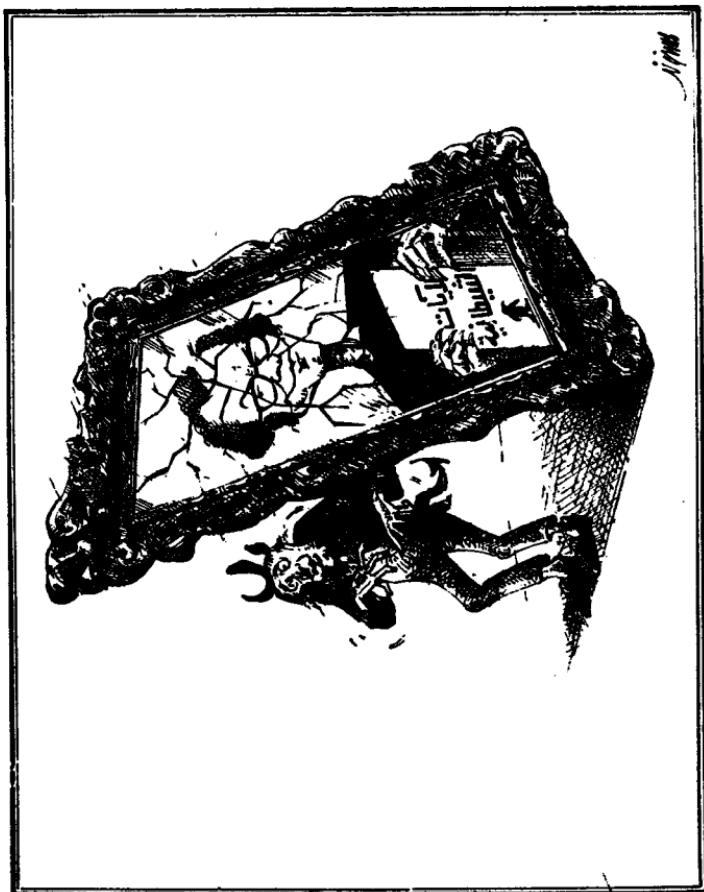
كاريكاتور آخر من الصحافة العربيّة

من يقف وراء الكتاب؟
وما هي جذور التُّهَم؟

هل تتلخّص قضيـة كتاب «الآيات الشيطانية» في كونها مجرَّد رواية أدبية كُتبت ببلاغة لغوية صارخة، من غير أن يكون هنالك أيُّ دافع شيطاني من ورائها؟

هل هي نزوة كاتب رأى في الشذوذ عن القاعدة، وسبّ الأنبياء والرُّسُل والمطهَّرين جميعاً، سبباً للشهرة وكسب الربح المادّي بتحقيق أكبر قدر ممكن من المبيعات؟

وهل كان الذي ألّفه، والذين نشروه، يعرفون مسبقاً ما يمكن أن يؤدّيَ إليه مثل هذا الكتاب؟

هل هي مجرّد «لـوحة لم يسبق أن رُسمت لوعي إنسان معاصر من العالم الثالث لعلاقته بتاريخه ولاقترابه بهذه الحدّة من علاقة الإيمان بالموت»، كما يقول أحد زملائه في المعتقد؟

إن الأدب أو البلاغة الأدبية، ليس بتبرير لتأليف رواية تقدح في مقدَّسات ديانة حيّة لها معتنقوها والمؤمنون بها، والعاملون

لها، والذين يرتفع لهم أكثر من ٧٠ علماً فوق مبنى الأمم المتحدة. ذلك أننا وجدنا تاريخيًّا أن الذين تطاولوا على رسول الله محمد ـ ص ـ كانوا يختفون وراء مقطوعات من الشعر أو النثر أو «التنكيت» أو ما شابه ذلك. فابتداءً من بداية البعثة النبوية الكريمة، ومروراً بعصر الحروب الصليبية، وانتهاءً بيومنا هذا كانت «البلاغة الأدبية» هي مطيّة التهجّم على الإسلام ورسوله، وكانت غالباً، أيضاً، بطريقة غير مباشرة كما فعل سلمان رشدي في كتابه هذا.

فليس هذا الكتاب أول إصدارة في هذا الشأن وهو حتماً لن يكون الأخير. إلّا أن الوقوف معه، وتلاوته ككتاب مقدَّس في الشوارع، وجمع التواقيع تأييداً لمحتواه يجعلنا نتساءل: هل جاءت الرواية مصادَفة في هذا الزمن؟

إن مؤسسة بنجوين Penguin التي نشرت الرواية كانت تعرف سلفاً مخاطر نشرها، ذلك أن «كواشوانت سينك» مستشار المؤسسة المذكورة في الهند قال في مقابلة له مع مجلة *Impact International* بتاريخ ٢٨ أكتوبر ١٩٨٨: «إن ناشري الرواية أرسلوا نسخة لي لمعرفة رأيي حول ترجمتها إلى الهندية، ونشرها مع الأصل الإنكليزي في وقت واحد. وبعد مطالعتها بدقّة ذكرتُ لهم أن نشر هذه الرواية ليس صحيحاً،

ولا مصلحة فيه، ليس في الهند فقط بل في أيّ مكان آخر أيضاً».

ويضيف «سينك» قائلاً: «وقلت لهم أيضاً: لقد صُوِّر النبي محمد في هذه الرواية على أنه دجّال. وإن كان المؤلِّف لا يدرك أن هذا العمل قد يسبِّب المشاكل، فلا شكّ أنه لا يفهم أبداً حقائق الأمور».

ثمّ يضيف «سينك»: «من خلال معرفتي بسلمان رشدي، وسوابق أعماله، فإني أؤكد أن الرجل كان يعرف تماماً ما يترتب على نشر روايته»[١].

ثم إن الذين رشّحوا الكتاب لنيل الجائزة الأدبية والذين عملوا الدعايات اللازمة له، كلّهم من الذين لهم سوابق معروفة في معاداة الإسلام، كما أن لهم المصلحة في ذلك.

فجريدة «صنداي تايمز» *Sunday Times* التي يملكها اليهودي المعروف Rubert Mordoch كانت أول جريدة عملت الدعاية للكتاب، وقالت عنه إنه «قطعة فنية رائعة، في شكل رواية تُعتبر أكثر طموحاً من أيّ عمل آخر كُتب هذه الأيّام».

* * *

---

(١) *Impact International*, p. 1.

ولنا أن نسأل: من يقف وراء هذا الكتاب؟ وأيَّ شيء يستهدفون من ورائه؟

إنني أعتقد أن وراء الكتاب أصابع لصهاينة من اليهود، وذلك بدليلين:

الأول: أن اليهود، تاريخيّاً، كانوا هم الذين اتهموا أنبياءهم بكل الشنائع التي كانوا ـ هم ـ يرتكبونها، ولربّما كتبرير لأعمالهم.

فليس هنالك نبيّ بُعث في بني إسرائيل إلّا وقد تعرّض لتُهَم مختلفة في نفسه، أو عِرضه، أو أهله، أو معتقده.

ولقد حاولوا دسّ الافتراءات المختلفة على بقية الأنبياء والرُّسُل، ومنهم خاتم الأنبياء ـ ص ـ.

الثاني: أن هؤلاء هم الجهة الوحيدة التي استفادت من نشر هذه الرواية، فلا مصلحة للمسلمين، ولا للمسيحيين، في ذلك، ولكن المصلحة ـ كلَّ المصلحة ـ للصهيونية لأنها تحاول دائماً خلق حواجز بين الطرفين، لتمنع المسلمين ـ وخاصة في الغرب ـ من أن يصبحوا قوّة ذات تأثير، ولتجعل المسيحيين في مواجهة دائمة مع المسلمين، وليس مع اليهود كما يُفترض.

فمن مصلحة الصهاينة تشويه صورة الإسلام وإلباس الحقّ فيه بالباطل، وإبعاد الناس عن الهُدى، واستغلال أية «ردّة

فعل» محتملة من قِبَل المسلمين لزيادة الخلاف مع المسيحيين من جهة، ولاستعداء الحكومات هناك ضدّ المسلمين من جهة أُخرى.

وبعد ذلك كلّه فلن نستغرب حينما نقرأ أن دار بنجوين دفعت مبلغ ٨٥٠ ألف دولار لسلمان رشدي كحقّ التأليف لنشر روايته هذه!

مواقف غير المسلمين

يكفي في بشاعة محتوى الكتاب أنه لا يمكن مجرّد التفكير في الدفاع عنه، أو عن مؤلِّفه، إلّا من خلال زاويتين:

الأولى: باعتباره قطعة أدبية فقط.

الثانية: باعتبار أن صاحبه تعرّض للتهديد بالموت.

فمن يحترم نفسه لا يستطيع أن يدافع عن الفحش الصريح، والسبّ السوقيّ، والبذاءة السافلة. كما أن كلّ من دافع عن الكتاب وضع نفسه في الزاوية نفسها التي وضع المؤلّف نفسه فيها.

صحيح أن كثيرين دافعوا عن الكتاب، ولكنهم فعلوا مثل مؤلفه، أي أنهم اختفوا وراء مفاهيم أخرى غير ما جاء في الكتاب ليُبدوا تأييدهم له.

لقد قال «ميتران» في ردّه على تهديد المؤلِّف بالموت: «إن كل جمود فكريّ يُضعف حرّية التعبير عن طريق العنف هو، من وجهة نظري، شرّ خالص، والتقدم الأخلاقي والروحي

للإنسانية رهنٌ بالقضاء على كافّة أشكال التعصّب».

* * *

أمّا ردود الفعل تجاه الكتاب، فنستعرض جزءاً يسيراً منها، مقتصرين على ما له دلالة خاصة، تدخل ضمن قانون: «ويلٌ لمن كفّره إبليس».

● قال سلمان رشدي نفسُه: «إنني أُبدي أسفي العميق للضيق الذي سبّبه كتابي للمسلمين المخلصين». وقال: «إننا نعيش في عالم فيه أديان كثيرة، وإنه علينا أن نعي حساسيات الآخرين»[1].

● وقال الحاخام الأكبر لليهود الغربيين ـ الأشكناز ـ في إسرائيل «أبراهام شابيرو»: «أفهم مشاعر ملايين المسلمين في العالم الذين جرح مشاعرَهم هذا الكتابُ اللاإنساني واللاأخلاقي». وطالب بمنع الكتاب في إسرائيل...، بالرغم من أن أرييل شارون طالب بإعطاء حقّ اللجوء السياسي لسلمان رشدي، كما طالب بترجمة الكتاب، في إسرائيل، إلى كل لغات العالم.

● في الفاتيكان انتقدت صحيفة «لو سير فاتوري رومانو»

---

(١) مجلة الوحدة الإسلامية، العدد ١١٨، ص ٨.

الناطقة بلسان الفاتيكان «جانب الوقاحة والتجديف» في كتاب «الآيات الشيطانية» وعبّرت عن تضامنها مع «الذين شعروا بأنهم جُرحوا في كرامتهم من المؤمنين».

وأضافت الصحيفة تقول: «من الصعب معرفة النوايا الحقيقية لرشدي، ولكن من الأكيد أن روايته أساءت إلى ملايين المؤمنين».

● في بريطانيا صرّحت رئيسة الوزراء «مارغريت ثاتشر» بأنها تدرك كيف أن كتاب سلمان رشدي مسيء للغاية بالنسبة للمسلمين، وقالت في زيارة لها لدائرتها الانتخابية شمالي لندن «إنها تتحدّث بصفتها مسيحية، وإن الديانتين الكبريين المسيحية والإسلام قويتان وعميقتان بما فيه الكفاية لمقاومة هذه الأحداث».

● وفي بريطانيا أيضاً حثّ النائب «برني غرانت» وأربعة نوّاب آخرين من حزب العمال إدارة حزب العمال على أن تعبّر عن «أسفها» لنشر كتاب رشدي، وأيدوا من جهة أخرى المذكرة التي اقترحها بعض النواب البريطانيين والتي تقضي بتوسيع إطار القانون المتعلّق بمعاقبة أية إهانة أو شتيمة تتعرّض للدين المسيحي ليشمل الديانات الأخرى».

● في باريس صرّح الكاردينال «ألبرتو كورتره» بقوله:

«إنني أعتقد أن المؤمنين تعرّضوا مرّة أخرى للأذى، بسبب إيمانهم، فبالأمس تعرّض المسيحيون للأذى بفعل فيلم: الإغراء الأخير للمسيح، واليوم يتعرّض المسلمون لذلك بسبب كتاب: «الآيات الشيطانية»[1].

● وفي فرنسا أيضاً قال الرئيس الفرنسي السابق «جيسكار ديستان»: «من حقّنا أن نغضب ضدّ الدعوات إلى القتل، وأن نتخذ إجراءات ضدّها، ولكن يجدر بنا أن نهتمّ أيضاً باحترام عقائد الآخرين»[2].

● وفي الاتحاد السوفياتي صرّح «ميخائيل نناشوف»، رئيس اللجنة الحكومية لدور النشر، «أن الاتحاد السوفياتي يلتزم بمبدأ عدم نشر أيّ كتاب يتعرّض بالإهانة للعواطف الدينية أو الوطنية لأيّة أمّة من الأمم»[3].

---

(١) الوكالات، ٢٢ فبراير ١٩٨٩.
(٢) مجلة المستقبل، العدد ٦٢٨، ٤ مارس ١٩٨٩.
(٣) وكالة أنباء فرانس برس France Press، ٢٢ فبراير ١٩٨٩.

ردود الفعل الإسلاميّة

ربّما كانت ردود الفعل الإسلامية تجاه كتاب «الآيات الشيطانية» هي الأوسع على الإطلاق.

فالكتاب تحوّل خلال شهور من مجرَّد رواية أدبية، إلى إحدى أدوات الصراع داخل العلاقات الدّولية. ذلك أن المسلمين وجدوا فيه طعناً في صميم مقدَّساتهم، وإهانةً لكل ما يؤمنون به في الحياة، واتهاماً لأعزّ إنسان لديهم، وهو رسول الله - ص -.

وفي الحقيقة أن أكثرية المسلمين وجدوا الكتاب محاولةً من قِبَل أعدائهم ليس للنيل من كراماتهم فحسب، بل وسيلة من وسائل هيمنة ثقافيّة يجري التخطيطُ لها في الخفاء.

ومن هنا جاءت ردود الفعل شاملة، وعارمة، وعفوية، ومتواصلة، ودمويّة.

ففي تاريخ ٥ أكتوبر ١٩٨٨، أي قبل ظهور الكتاب في بريطانيا بأسبوعين، قدّم أحد أعضاء حزب «جناتا» الهندي طلباً

بمنع الكتاب في الهند. وقد استجاب رئيس الوزراء لهذا الطلب، وجرى منعُ الكتاب هناك[1].

لقد انطلقت الشرارة الأولى لقضية الكتاب إذن في البرلمان الهندي في بومباي، حيث ثار غضب النواب المسلمين فيه وطالبوا السلطات الهندية بفرض حظر بيع الكتاب في الهند. ولبّت السلطات الهندية الطلب.

ثم انتشرت القضية «كبقعة الزيت» في مختلف أنحاء العالَمَيْن العربي والإسلامي حتى بات الكتاب ممنوعاً في أغلبيتهما، بما فيهما مصر والمملكة العربية السعودية والهند والباكستان وإيران، وحتى إفريقيا الجنوبية، حيث ضغط المسلمون فيها على السلطات بغية منع الكتاب وإلغاء زيارة سلمان رشدي الذي كان مدعواً لحضور ندوة فكرية هناك.

كما شهدت إنكلترا، البلد الأول الذي نشر الكتاب، تظاهرات إسلامية معادية لنشره وتوزيعه، منها في العاصمة، ضمّت ما لا يقلّ عن ثمانية آلاف متظاهر، وأخرى في مدينة برادفورد الصناعية الواقعة شمال البلاد والتي يقطنها ما لا يقلّ عن أربعين ألف مسلم، أغلبيتهم من الهنود والباكستانيين، وقد أحرق خلالها السيد عبد القدّوس، عضو لجنة مساجد

---

(١) الهلال الدولي، العدد ١١، ١ ـ ١٥ مارس ١٩٨٩.

بريطانيا، الكتابَ أمام مركز بلدية المدينة قائلًا: «كل مسلم جيّد يريد القضاء على سلمان رشدي، لأنه أقدم على تشويه الإسلام، وعليه أن يدفع الثمن»[1].

وبعد ثلاثة أشهر ونصف من صدور الكتاب في لندن، أصدر الإمام الخميني فتوى تنصّ على ما يلي:

«على كل مسلم في العالم أن ينفّذ حكم الإعدام في مؤلّف كتاب الآيات الشيطانيّة وناشريه سريعاً، أينما وُجدوا، إن كان الناشرون على علم بمحتواه. وإن أي مسلم يعلم مكان المؤلف ويعجز عن تنفيذ حكم الإعدام فيه عليه أن يُخبر بمكانه من يستطيع تنفيذ الحكم فيه حتى لا يتجرّأ أحد على الإساءة إلى مقدّسات المسلمين». وأضاف الإمام الخميني: «إن أي مسلم يُقتل في هذا السبيل يُعتبر عهيداً إن شاء الله».

من جهة أخرى أكّد الرئيس الإيراني السيد علي خامنئي ضرورة تنفيذ حكم الإعدام بالمؤلف، مشيراً إلى «أن العالم الإسلامي مسؤول أمام حكم الإمام»، وأوضح بأن «نقد الأديان لا يكون من خلال الإساءة والإهانة إلى الأحكام الشرعية، وأن القيام بمثل هذه الأعمال الخبيثة لا يمكن إجابتها بالمنطق والاستدلال».

---

(١) مجلة الوحدة الإسلامية، العدد ١١٨، ٢٤ فبراير ١٩٨٩، ص ٥٨.

وقد شهدت جمهورية إيران الإسلامية تظاهرات تنديد بالكتاب وصاحبه وبنشره، وعُلّقت الأعمال والوظائف والدوائر والدروس في يوم الحداد الذي أُعلن في حينه. كما شهدت الباكستان تظاهرة معادية للكتاب أدّت إلى سقوط أربعة شهداء.

وفي بون تظاهر حوالي خمسة آلاف مسلم يعيشون في ألمانيا الغربية احتجاجاً على الكتاب. وقالت الشرطة إن المسيرة التي نظّمتها لجنة الوحدة الإسلامية كانت سلمية.

وفي كراتشي أعلنت الشرطة أن آلافاً من المتظاهرين قاموا بنهب وتدمير محتويات جزء من مطار كراتشي الدولي احتجاجاً على كتاب سلمان رشدي «الآيات الشيطانية»، وعلى زيارة وحدة من الأسطول السابع الأميركي لهذا الميناء الواقع جنوب باكستان.

وبعد صدامات مع رجال الأمن قام المتظاهرون باقتحام القاعة المخصّصة لكبار الشخصيات بعد تحطيم أبوابها.

وألقت الشرطة القبض على نحو ٢٠ شخصاً بتهمة الإخلال بالأمن وتخريب ممتلكات عامة. ولم تُشِر الشرطة إلى وقوع إصابات.

وفي سرنجار (الهند) خاض مسلمون غاضبون من رواية «الآيات الشيطانية» معارك شرسة مع الشرطة في شمال الهند

بعد أن دعا الأمين العامّ للأمم المتحدة «دي كويار» إلى إنهاء الجدل حول الرواية.

وأصيب حوالي ٤٠ شخصاً في معارك في الشوارع في عدة مناطق من كشمير التي قُتل فيها ثلاثة أشخاص وأصيب عدة مئات بجروح.

وفي بانكوك قام عدة مئات من المسلمين في تايلاند بتظاهرة سلميّة ودعا زعماء دينيّون إلى حظر رواية رشدي.

ونعتت ملصقات على جدران المركز الإسلامي، في تايلاند، «رشدي» بأنه «شيطان على هيئة رجل»[١].

وفي بادو (إيطاليا) ذكرت الشرطة الإيطالية أن حريقاً مقصوداً شبّ في مكتبة موندادوري في بادو التابعة للناشر الايطالي لكتاب سلمان رشدي «الآيات الشيطانية».

ووصل رجال الإطفاء سريعاً إلى المكان ونجحوا في احتواء الحريق. ويقول المحقّقون إن سائلاً قابلاً للاشتعال سكب داخل المكتبة ولم يعلن أحد مسؤوليته عن الحادث.

وفي تورنتو (كندا) نظّم حوالي ١٥٠٠ مسلم تظاهرة احتجاجاً على الرواية.

---

(١) الوكالات، ٢٣ شباط ١٩٨٩.

وأحرق المتظاهرون نسخة من الرواية وطالبوا الحكومة الكندية بمنع تداول الكتاب ومعاقبة مؤلّفه «للحرج الكبير الذي أحدثته روايته لدى مليار مسلم في العالم».

وكانت الحكومة الكندية قد منعت إدخال الكتاب أو تداوله لمدة يومين فقط ثم سمحت به قائلة إن لجنة مختصة درسته وإنها وجدته لا يتضمن ما يوجب منعه وفقاً للدستور الكندي.

وفي الخرطوم تظاهر مئات من المؤمنين بعد صلاة الجمعة أمام سفارة بريطانيا وهم يهتفون ضدّ رشدي وبريطانيا.

وفي مانيلا تظاهر المسلمون خارج السفارة البريطانية.

وفي إسطمبول أحرق متظاهرون مسلمون غاضبون عَلَم بريطانيا، في أول احتجاج من نوعه هناك.

* * *

وهكذا نجد أن التظاهرات عمّت كل العواصم تقريباً، فحيثما وُجد مسلمون، وأمكنهم القيام بمظاهرة احتجاج، فعلوا ذلك، حتى أصبح خبر الكتاب والمؤلف ورفض المسلمين لهما في كل نشرات الأخبار تقريباً.

كل ذلك عدا ما ترتّب على ذلك من آثار سياسية، واستدعاء سفراء، وقطع علاقات، وتجاذب بين الدّول.

كيف يجب التصرّف حيال أمثال هذا الكتاب؟

إن الردَّ على أية محاولة للنيل من مقدَّسات المسلمين يجب أن يكون حضاريًّا، يأخذ بعين الاعتبار عاملَي «الردع» من جهة، و«الهجوم الإيجابي» من جهة أخرى.

والردع، هنا يعني المقاطعة، سواءٌ للكتاب، أم للكاتب، أم للناشر، كما يعني الاحتجاج على ذلك بشتى أنواعه.

أما «الهجوم الإيجابي» فيعني أن نتحمل مسؤوليتنا في نشر الدعوة المحمدية، وهداية الناس إلى حقائق الإسلام.

ويمكن أن يأتي ذلك في صورة أو أكثر ممّا يلي:

أولاً: تأسيس شركات نشر عالمية، تقوم بمهمة الترجمة والنشر للحقائق القرآنية بشكل دائم ومستمرّ.

ثانياً: تأسيس المؤسَّسات الرسمية، في العالم الغربي، والدخول في معترك الحياة السياسية هناك.

ثالثاً: فتح الحوار حول مختلف القضايا الدينية مع الأطراف

الأخرى، لكي يتفهّم أصحاب القرار، والسلطات الروحية، أصول ديننا وشرائعه.

رابعاً: فتح حوارات حضارية لتقريب وجهات النظر مع المفكرين والخبراء، لبناء العلاقات الإنسانية مع بني الإنسان كما أمرنا القرآن الكريم بذلك، بصرف النظر عن معتقداتهم.

إن من واجبنا أن نتحمل مسؤولية النهوض بالإسلام في كل أنحاء العالم، عبر الدعوة اليومية عملاً بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحَسَنة﴾[1] ، كما أن علينا النهوض بالمسلمين عبر تحميلهم المسؤولية، فليس الاستعمار وحده مسؤولاً عن تخلّفنا الحضاري، وإنّما يقع الجزء الأكبر من المسؤولية على عواتقنا نحن.

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

نبذة من السيرة النبويّة ومن أخلاق الرسول

يسمو الرسول الكريم ـ ص ـ عن أن يكون متَّهماً في خلقه وسلوكه. ونحن لسنا هنا في معرض الدفاع، ولا في معرض ردّ التُّهَم عنه، ولكننا نريد أن نضع بين يدي القارىء نبذة من السيرة النبوية الشريفة ونَصِفَ جانباً من أخلاق سيّد المرسلين، فنترك النصوص تتكلّم بذاتها وتنطق بالحقّ الذي لا يمكن مدافعته.

وقد ارتأينا أن نجعل هذا القسم من الكتاب في جزءين اثنين:

أولاً: موجز لتاريخ رسول الله محمد ـ ص ـ على لسان أحد أبرز المؤرّخين الغربيين، وهو «ويل دورانت» في كتابه «قصة الحضارة»[1]. ونحن، وإن تكن لنا ملاحظات كثيرة على ما قاله هذا المؤرِّخ القدير، نرى أن ما ذكره يمكن أن يشكّل أفضل ردّ على المؤلّف المارق «سلمان رشدي» لدحض أفكاره

(١) القسم الثالث، الجزء الثاني، المجلد الرابع، ص ٦ ـ ٦٩.

الكافرة، وذلك أن «دورانت» لا يعدو كونه مستشرقاً غير مسلم، ينظر نظرة متجرّدة إلى الإسلام، وذلك على أساس أن الشهادة من أهله جاءت.

ثانياً: نصوص من أمّهات الكتب الإسلامية تبيّن جوانب من أخلاقه ـ ص ـ على ألسنة معاصريه. ونحن نرى أن الأخلاق السامية الكريمة كانت مجسَّدة في أعمال الرسول ـ ص ـ ومواقفه وعلاقاته، إذ كان في كل خطوة يخطوها مثلاً أعلى يُحتذى وسراجاً وقّاداً يُستضاء به. ألم يقل عنه ربُّنا في محكم آياته: ﴿يا أيُّها النبيُّ إنّا أرسلناكَ شاهداً ومبشِّراً ونذيراً. وداعياً إلى اللَّه بإذنه وسراجاً منيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦).

أولاً: موجز السيرة النبويّة
من كتاب «قصّة الحضارة»

محمّد في مكّة

لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة، فقد ترك له أبوه عبدالله خمسة من الإبل، وقطيعاً من المعز، وبيتاً، وأمه عُنيت بتربيته في طفولته. ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه، كأنه حُمد مرة بعد مرة، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشّر به.

وقد توفيت أمه وهو في السادسة من عمره وكفله أولاً جدّه، وكان وقتئذٍ في السادسة والسبعين من عمره، ثم عمه أبو طالب، ولقي منهما كثيراً من الحبّ والرعاية، ولكن يبدو أن أحداً لم يُعْنَ بتعليمه القراءة والكتابة. ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلّها إلا سبعة عشر يقرأون ويكتبون. ولم يُعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصًّا له، ولكن هذا لم يَحُلْ بينه وبين المجيء بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية، أو بين قدرته على تعرّف شؤون الناس تعرّفاً قلّما يصل إليه أرقى الناس تعليماً.

ولا نكاد نعرف عن شباب محمد إلا القليل، وكان ما يُروى عنه من القصص ـ بعد نزول الوحي عليه ـ قد ملأ عشرة آلاف مجلّد. وتقول إحدى الروايات إن عمه أبا طالب قد أخذه معه وهو في الثانية عشرة من عمره في قافلة إلى بُصرى ببلاد الشام. وتصوّره قصة أخرى بعد بضعة سنين من الرحلة السابقة مسافراً إلى بُصرى في تجارة للسيّدة خديجة، وكانت وقتئذٍ أرملة غنية، ثم نراه في الخامسة والعشرين من عمره وقد تزوج فجأة بهذه السيّدة، وهي وقتئذٍ في الأربعين من عمرها وأم لعدة أبناء. ولم يتزوج غيرها حتى توفّيت بعد ذلك بستة وعشرين عاماً، ولم يكن الاقتصار على زوجة واحدة أمراً مألوفاً عند أغنياء العرب في ذلك الوقت، ولكن لعله كان طبيعياً في حالتهما. وقد رُزق منها عدة بنات أشهرهنّ كلهنّ فاطمة، كما رُزق بولدين توفّيا في طفولتهما. وقد وجد سلواه في تبنّي عليّ بن أبي طالب.

وكانت خديجة سيّدة طيبة، وزوجة صالحة، وتاجرة بارعة ظلت وفيّة لمحمد في صروف حياته الروحية، وظلّ يذكرها بعد وفاتها على أنها خيرُ نسائه كلّهنّ.

ويصف عليّ، زوجُ فاطمة، محمداً وهو في سنّ الخامسة والأربعين بقوله:

لم يكن بالطويل المُمْغِط ولا القصير المتردِّد، وكان رَبْعَة

من القوم، ولم يكن بالجعد القَطَط ولا السَّبْط، كان جَعْداً رَجْلاً، ولم يكن بالمُطَهَّم ولا المُكَلْثَم، وكان أبيض مُشْرَباً أدعجَ العينين أهدبَ الأشفار، جليلَ المُشاش والكَتَد، دقيق المَشْرَبَة، أجود شَثِن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلّع كأنما يمشي في صَبَب، وإذا التفت التفت معاً. . . أجود الناس كفًّا وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجةً، وأوفى الناس ذمّةً، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عشرةً، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبّه، يقول ناعتُه: «لم أر قبله ولا بعده مثله ـ ص ـ».

وكان محمد مَهيب الطلعة، لا يضحك إلا قليلاً، قادراً على الفكاهة ولكنه لا يترك العنان لهذه الموهبة، لأنه كان يعرف خطورة المزاح إذا نطق به من يتولى أمور الناس. ولم يكن قويّ البنية، ولهذا كان مرهف الحس سريع التأثر، كثير التفكير. كان إذا غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله، ولكنه كان يعرف متى يهدّىء من انفعاله، وكان في وسعه أن يعفو من فوره عن عدوه الأعزل إذا تاب.

وكان في بلاد العرب كثيرون من المسيحيين، وكان منهم عدد قليل في مكة.

ولعله قد بدا له أن ما يسود جزيرة العرب من شِرْك، ومن عبادة للأوثان، ومن فساد خلقي، ومن حروب بين القبائل وتفكك سياسي، نقول لعله قد بدا له أن حال بلاد العرب إذا

قورنت بما تأمر به المسيحية واليهودية حال بدائية لا تشرِّف ساكنيها.

وكانت في البلاد شيعة من العرب تُدعى بالحنفية أَبَت أن تقرّ بالألوهية لأصنام الكعبة وقامت تنادي بإله واحد يجب أن يكون البشر جميعاً عبيداً له وأن يعبدوه راضين.

وكان محمد، كما كان كل داعٍ ناجح في دعوته، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبِّر عن حاجاتهم وآمالهم.

وكان كلما قرب من سن الأربعين ازداد انهماكاً في شؤون الدين، فإذا حلّ شهر رمضان ـ وهو من الأشهر الحُرُم ـ آوى وحده أو جمع أسرته في بعض الأحيان إلى غار في جبل حِراء على بعد ثلاثة أميال من مكة، وقضى فيه عدة أيام وليالٍ في الصوم، والتفكير، والصّلاة. وبينما هو في ذلك الكهف بمفرده في ليلة من ليالي عام ٦١٠ م، إذ حدث له ذلك الحادث العظيم وهو المحور الذي يدور عليه تاريخ الإسلام كلّه.

ويقول محمد بن إسحق، أشهر من كتب سيرة النبي، إنه هو نفسه قد وصف هذا الحادث الجليل بقوله: «فجاءني جبريل وأنا نائم بنَمَط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ.

قلتُ: ما أقرأ؟ فغتّني به حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ.

فقلتُ: ما أقرأ؟ فغتّني حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ.

قال: فقلتُ: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي.

فقال: ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

فقرأتُها ثم انتهى فانصرف عني. وهببتُ من نومي فكأنما كتب في قلبي كتاباً؛ فخرجتُ حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعتُ صوتاً من السماء يقول: يـا محمد، أنت رسول الله وأنا جبـريل. قال: فرفعتُ رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء يقول: يـا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريـل. قال: فوقفتُ أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلتُ أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظر من ناحية منها إلا رأيتُه كذلك، فما زلتُ واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رُسُلها في طلبي.

ولما عاد إلى خديجة حدّثها بما رأى. وتقول الرواية إنها آمنت بأن ما رآه وحيٌ صادق من السماء، وشجّعته على أن يعلن للناس رسالته.

وأخذ محمد في خلال السنوات الأربع التالية يجهر شيئاً فشيئاً بأنه نبي الله المبعوث لهداية الناس إلى حياة أخلاقية جديدة وإلى دين التوحيد. وقد لاقى في سبيل دعوته صعاباً كثيرة. ذلك أن الأفكار الجديدة لا يقبلها الناس إلا إذا كانوا يرجون من ورائها نفعاً مادياً عاجلاً، وأن محمداً كان يعيش في مجتمع تجاري متشكّك يحصل على جزء من إيراده من الحجّاج الذين يَفِدون على الكعبة لعبادة آلهتها الكثيرة، وكان مما تغلّب به على بعض هذه الصعاب ما وُعِدَ به المؤمنون من النجاة في الدار الآخرة من نار جهنّم والاستمتاع بنعيم الجنّة.

وكان محمد يستقبل في داره كل من أراد الاستماع إليه، غنياً كان أو فقيراً أو عبداً رقيقاً، من العرب والمسيحيين واليهود، وقد تأثر بحماسته وبلاغة قوله عددٌ قليل ممن جاءوا إليه وآمنوا به، وكان أول من آمن برسالته زوجته المسنّة السيدة خديجة، وآمن بها من بعدها ابن عمه عليّ، ثم خادمه زيد، وكان قد اشتراه بالمال ثم أعتقه من فوره، ثم أبو بكر وهو رجل من ذوي المكانة في قريش. واعتنق الدين الجديد بتأثير أبي بكر خمسة من زعماء مكة.

وكثيراً ما كان محمد يدخل الكعبة، ويتحدث إلى الحجّاج، ويدعوهم لعبادة إله واحد.

وسخرت قريش أول الأمر من دعوته ولكنها صبرت عليها،

وقالت إن بعقله خبالاً، وعرضت أن ترسله على نفقتها إلى طبيب يرجى أن يشفيه من جنونه، فلما أن أخذ يهاجم دينهم ويقول إن الشعائر التي يقومون بها في الكعبة ليست إلا عبادة لما فيها من الأوثان هبّوا للدفاع عن مورد رزقهم، وكادوا يوقعون به أذًى جسيماً اولا أنْ حماه منهم عمه أبو طالب. ولم يعتنق أبو طالب الدين الجديد، وكان إخلاصه لتقاليد العرب القديمة يُحتّم عليه أن يحمي كلَّ فرد من أفراد قبيلته.

وكان خوف قريش من إثارة الفتنة الصمّاء بين العرب مانعاً لها من استخدام العنف مع محمد والأحرار من أتباعه. أما من آمنوا به من العبيد فقد كان في وسعهم أن يستخدموا من الأساليب ما يرونه كفيلاً بردّهم عن الدين الجديد، دون أن يخالفوا بذلك قوانين القبائل وتقاليدها. فزجّوا بعضهم في السجون وعرّضوا البعض الآخر ساعاتٍ طوالاً إلى وهج الشمس وهم عراة الرؤوس. ومنعوا عنهم الماء. وكان أبو بكر قد ادّخر من تجارته خلال عدة سنين أربعين ألف قطعة من الفضة؛ فلما رأى ما كان يحدث لأولئك العبيد أنفق ٣٥,٠٠٠ منها في تحرير أكبر عدد من العبيد المسلمين، ويسّر محمد الأمر بقوله إن المرتدّ المكرَه لا عقاب عليه.

وغضبت قريش من ترحيب محمد بالعبيد أكثر من غضبها من عقيدته الدينية. وظلت تضطهد من دخل في الإسلام من

الفقراء اضطهاداً بلغ من القسوة حدًّا لم يَسَعِ النبي معه إلا أن يأذن لهم أو يشير عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة، حيث رحّب بهم ملكها المسيحي وأكرم وفادتهم (٦١٥).

وحدثت بعد عام من ذلك الوقت حادثة كان لها شأن كبير في تاريخ الإسلام، وهي اعتناق عمر بن الخطاب للدين الجديد بعد أن كان من ألدّ أعدائه وأشدّهم عنفاً في مناهضته. وكان عمر رجلاً قويّ الجسم، ذا مكانة اجتماعية.

وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يدعون الناس جهرة في الشوارع والطرقات بعد أن كانوا من قبل لا يعبدون الله إلا سرًّا في بيوتهم. واجتمع المدافعون عن آلهة الكعبة وأقسموا أن يقطعوا كل صلة بينهم وبين من لا يزالون من بني هاشم يرون واجباً عليهم أن يدافعوا عن محمد. ورأى كثيرون من الهاشميين ومن بينهم محمد وأسرته حقناً للدماء أن ينسحبوا إلى شِعب منعزل في مكة يستطيع أبو طالب أن يدفع عنهم الأذى فيه (٦١٥). وظلت هذه الفرقة بين العشائر قائمة سنتين كاملتين عاد بعدها بعض رجال قريش إلى صوابهم فدعوا الهاشميين أن يعودوا إلى بيوتهم وتعهّدوا ألا يمسّوهم بسوء.

وابتهجت لهذا القلّةُ المسلمة في مكة، ولكن ثلاثة خطوب ألمّت بمحمد في عام ٦١٩، فقد توفِّيت في ذلك العام السيدة خديجة أوفى الناس له وأكثرهم تأييداً لدعوته، وتوفِّي أبو طالب

الذي كان ينصره ويدافع عنه. وأحسّ محمد أنه لا يأمن على نفسه في مكة، فهاجر إلى الطائف (٦٢٠)، وهي بلدة ظريفة بعيدة عن مكة بنحو ستين ميلاً إلى جهة الشرق. ولكن الطائف لم تقبله، لأن زعماءها لم يروا من مصلحتهم أن يُغضبوا أشراف مكة التجّار، ولأن العامة فزعوا من الدين الجديد فأخذوا يهزأون بمحمد في الشوارع، ويقذفونه بالحجارة، حتى سال الدم من ساقيه، فعاد إلى مكة، وتزوج أرملة تدعى سودة.

ولم ينقطع عنه الوحي في هذه الأثناء، وخُيِّل إليه في ذات ليلة أنه انتقل إلى بيت المقدس، حيث رأى في انتظاره عند المبكى من أنقاض هيكلٍ، البُرَاقَ، وهو جواد مجنّحٌ، فطار به إلى السماء، ثم عاد به منها، ثم وجد النبي نفسه بمعجزة أخرى آمناً في فراشه بمكة. وبفضل هذا الإسراء أصبحت بيت المقدس ثالثة المدن المقدَّسة عند المسلمين.

وفي عام ٦٢٠ أخذ محمد يبثّ الدعوة بين التجار الذين وفدوا على مكة ليحجّوا إلى الكعبة، وقبل بعض التجار دعوته. ولما عاد هؤلاء التجار إلى بلدهم أخذ بعضهم يدعون أصدقاءهم إلى الدين الجديد، ورحّب بعض اليهود بهذه الدعوة لأنهم لم يروا فارقاً كبيراً بين تعاليم محمد وتعاليمهم.

وفي عام ٦٢٢ أقبل على محمد في مكة سرًّا ثلاثة وسبعون

رجلاً من أهل المدينة ودعوه إلى الهجرة إلى بلدهم واتخاذها موطناً له. فسألهم هل يدافعون عنه كما يدافعون عن أبنائهم، فأقسموا أن يفعلوا، ولكنهم سألوه عما يُجزون به إذا قُتلوا في أثناء دفاعهم عنه، فأجابهم بأن جزاءهم هو الجنّة.

وفي ذلك الوقت أصبح أبو سفيان حفيد أميّة زعيم قريش في مكة، وكان قد نشأ في جو من الكراهية لبني هاشم، فعاد إلى اضطهاد أتباع محمد، ولعله قد سمع أن النبيّ يعتزم الهجرة من مكة، وخشي أنه إذا استقر له الأمر في المدينة قد يشنّ الحرب على مكة وعلى آلهة الكعبة. وعهدت قريش، بتحريضه، إلى بعض رجالها أن يقبضوا على محمد، ولعلها عهدت إليهم أن يقتلوه. وَعَلِمَ محمد بالخبر ففرّ هو وأبو بكر إلى غار ثور على بعد فرسخ من مكة، وظلّ رُسُل قريش يبحثون عنهما ثلاثة أيام ولكنهم عجزوا عن العثور عليهما. وجاء أبناء أبي بكر لهما بجملين فركباهما في أثناء الليل واتّجها بهما شمالاً، وبعد أن ظلّا سائرين عدة أيام قطعا فيها نحو مائتي ميل وصلا أخيراً إلى المدينة في ٢٤ سبتمبر من عام ٦٢٢. وكان قد سبقهم إليها مائتان من المسلمين بدعوى أنهم حجّاج عائدون من مكة، ووقفوا عند أبواب المدينة ومعهم من أسلم من أهلها ليستقبلوا النبي. وبعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اتخذ المسلمون اليومَ الأول من السنة العربية التي حدثت فيها تلك الهجرة،

وكان هو في ذلك العام يوم ١٦ يوليه من سنة ٦٢٢، البداية الرسمية للتاريخ الإسلامي.

محمد في المدينة

٦٢٢ - ٦٣٠

تقع يثرب، التي سُمّيت فيما بعد «مدينة النبي»، على الحافّة الغربية من الهضبة العربية الوسطى. وكانت إذا قورنت من حيث جوُّها بمكة بَدَتْ كأنها جنة عَدْن، وكان بها مئات من الحدائق وغِياض النخل والضياع. ولما دخل محمد المدينة تقدمت إليه طائفة في إثر طائفة وألحّت عليه أن ينزل عندها ويقيم معها؛ وأمسك بعضها بزمام ناقته لتمنعه من مواصلة السير وأصرّت على ذلك إصراراً تُمليه عليها تقاليدُها العربية، وكان جوابُه غايةً في حُسن السياسة فكان يقول لهم: «خلّوا سبيلها فإنها مأمورة»، وبهذا لم يترك للغيرة سبيلاً إلى قلوبهم لأن الله وحده هو الذي يسيّر الناقة ويهديها إلى حيث تقف. وبنى محمد في المكان الذي وقفت فيه ناقته مسجداً وبيتين متجاورين أحدهما لسودة والآخر لعائشة، وأضاف إليهما مساكن أخرى لزوجاته الأخريات.

وكان حين غادر مكة قد قطع كثيراً من صلات القرابة، فلما جاء إلى المدينة استبدل بصلات الدم صلاتِ الأخوّة الدينية في الدولة الجديدة، كما أراد أن يقضي على أسباب الغيرة بين

المهاجرين الذيـن جاءوا من مكة والأنصار الذين أسلموا من أهل المدينة ـ وكانت بوادر هذه الغيرة قد بَدَتْ في ذلك الوقت ـ فآخى بين كل واحد من إحدى الطائفتين وزميل له من الطائفة الأخرى، وطلب إلى كلتيهما أن تصلّي في المسجد مع أختها.

وفي أول اجتماع عباديّ في المدينة صعد المنبر وقال بصوت عال: «الله أكبر»، وردّد المجتمعون النداء بأعلى صوتهم وسجد لله وهو لا يزال متّجهاً بظهره إليهم، ثم نزل عن المنبر بظهره فلما وصل إلى آخره سجد لله ثلاث مرات، وكان هذا السجود رمزاً للخضوع إلى الله والاستسلام له ومنه سُمّي الدين الجديد بالإسلام، أي «الاستسلام» و«السِّلْم»، وسُمّي أتباعه بالمسلمين. ثم التفت إلى الحاضرين وأمرهم أن يحافظوا على هذه الشعائر إلى أبد الدهر. ولا يزال المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يتبعون هذه السنّة في الصلاة سواءٌ كانوا في مسجد، أو ضاربين في الصحراء، أو في بلد غريب لا مسجد فيه. وتنتهي الصلاة بخطبة كانت في زمن النبي خبراً عن وحي وتوجيهاً لأعمـال الأسبوع وسياسته. ذلك أن النبي كان يُنشىء حكومة مدنيّة في المدينة، واضطر بحكم الظروف أن يخصّص جزءاً متزايداً من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الاجتماعي، والأخلاق، والعلاقات السياسية بين

القبائل، ولشؤون الحرب، لأنه لم يكن ثمة حد فاصل بين الشؤون الدينية والدنيوية، بل اجتمعت هذه الشؤون كلها في يد الزعيم الديني.

فكان محمد في المدينة الرسول الديني والحاكم السياسي جميعاً، ولم تَرْضَ أكثرية العرب عن هذا الوضع وأخذت تنظر بعين الريبة إلى الدين الجديد وشعائره، وترى أن محمداً كان يقضي على تقاليد العرب، وأنه كان يزجّ بهم في الحروب، وكان من هؤلاء يهود المدينة الذين ظلوا متمسكين بدينهم ولم ينقطعوا عن الاتّجار مع قريش في مكة.

وقد عقد محمد مع أولئك اليهود عهداً ينمّ عن مهارة سياسية كبيرة، وقد جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن يتبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرون من قريش على ربقتهم يتعاقلون بينهم وهم يقدرون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة، وبنو الحارث، وبنو جُشَم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن ذمة الله واحدة، وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم، وإن اليهود ينفقون

مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود وبينهم مواليهم وأنفسهم، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فإن مردّه إلي الله عزّ وجلّ وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

وسرعان ما قبلت هذا العهد جميع قبائل اليهود في المدينة وما حولها: قبيلة بنو النَّضير وبنو قُرَيْظة وبنو قَيْنُقاع.

وهاجرت إلى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جرّاء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفي أهلها من الطعام. وحلّ محمد هذه المشكلة كما يحلّها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أنّى وجد[1].

ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارّة بالمدينة، متبعاً في ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية في ذلك الوقت[2]. فلما كُلِّلت هذه الغارات بالنصر أعطى المغيرين أربعة أخماس الغنائم، واحتفظ بالخمس الباقي للأعمال الدينية والخيرية، وكان نصيب من استشهد في هذه الغزوات من حق أرملته، أما هو فكان جزاؤه الجنة.

---

(١) الحقّ أن محمداً ـ ص ـ آخى بين المهاجرين والأنصار فاقتسموا موارد أرزاقهم، الأمر الذي أفضى إلى حلّ هذه المشكلة.

(٢) لقد كانت الإغارة على قوافل قريش المارّة بالمدينة عملاً يراد به الدفاع عن الإسلام واسترداد بعض ما اغتصبه أهل مكة من أموال المسلمين الذين هاجروا منها.

وكثرت الغزوات، وتضاعف عدد المشتركين فيها، وارتاع لها تجار مكة الذين كانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على سلامة قوافلهم، فأخذوا يدبّرون أمر الانتقام من محمد والمسلمين. وكان من هذه الغارات واحدة حدثت في آخر يوم من شهر رجب أحد الأشهر الحُرُم التي كان العرب يمتنعون فيها عن جميع أعمال القتال، وقُتل فيها رجل، وأساءت بذلك إلى سمعة أهل مكة والمدينة على السواء، وإلى تقاليد العرب المرعيّة منذ القدم. وفي عام ٦٢٣ جمع محمد نفسه ثلاثمائة من المسلمين المسلّحين، واعترض طريق قافلة قادمة من الشام إلى مكة. وعلم أبو سفيان وكان على رأس القافلة بهـذه الخطة، فغيّر طريقه، وأرسل إلى مكة من يطلب النجدة، وبعثت قريش بتسعمائة من رجالها، والتقى الجيشان الصغيران عند وادي بدر على بعد عشرين ميلاً جنوبي المدينة. ولو أن محمداً هزم في هذه الغزوة لقُضي عليه وعلى الإسلام في هذه المعركة، ولكنه قاد رجاله بنفسه وانتصر على قريش. وقويت بهذا النصر شوكةُ الإسلام، وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم (يناير عام ٦٢٤)، وقُتل من هؤلاء الأسرى بعض من كانوا أشد الناس اضطهاداً للمسلمين في مكة، وأُطلق سراح الباقين نظير فدية كبيرة، ونجا أبو سفيان، وأنذر المسلمين بالانتقام. ولما عاد إلى مكة أخذ يواسي أُسَرَ

القتلى ويشجّعهم، ويطلب عدم البكاء عليهم ورثائهم ويقول إن الحرب سِجال وإنهم سيأخذون بثأرهم. ثم أقسم ألا يقرب زوجه إلا بعد أن يخرج مرة أخرى لقتال محمد.

واشتدّ ساعد محمد بهذا النصر، وجرى العرب بعده على الأساليب المألوفة في الحروب.

ولَم يَطُل حبُّ اليهود من أهل المدينة لهذا الدين ذي النزعة الحربية، والذي بدا لهم أول الأمر شديد الشبه بدينهم، وأخذوا يسخرون من تفسير محمد لكتابهم المقدَّس، وقوله إنه هو الذي بُشِّر به آباؤهم، وكان جوابه أن قال، كما أوحي إليه، إنهم حرّفوا كتابهم، وقتلوا أنبياءهم، وأبَوْا أن يصدّقوا المسيح. وكان قد اتخذ بيت المقدس قبلةً يتجه إليها المسلمون في الصلاة، فاستبدل به في عام ٦٢٤ مكة والكعبة، واتهمه اليهود بأنه قد عاد إلى عبادة الأوثان[١].

وحدث في هذا الوقت أن زارت فتاة مسلمة سوق بني قَيْنُقاع اليهودي في المدينة، وبينا هي جالسة في حانوت صائغ إذ شبك يهودي خبيث قميصها من وراء ظهرها في أعلى ثيابها، فلما قامت ورأت ما فعل بها بكت مما لحقها من عار، فقتل

---

(١) وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولّينك قِبلة ترضاها فولِّ وجهَك شطرَ المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره﴾ (البقرة: ١٤٤).

أحدُ المسلمين اليهوديَّ الأثيم، وقتل أخوه اليهوديُّ المسلمَ.

فجمع محمد أتباعه وحاصر يهود بني قَيْنُقاع في حيّهم خمسة عشر يوماً، حتى استسلموا، فقبل استسلامهم وأمرهم أن يخرجوا بقضّهم وقضيضهم من المدينة ويتركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم، وكان عددهم في ذلك الوقت نحو سبعمائة.

وفي أوائل عام ٦٢٥ سار أبو سفيان على رأس جيش تبلغ عدّته ثلاثة آلاف رجل إلى جبل أُحُد على بعد ثلاثة أميال شمالي المدينة، وصحب الجيش خمس عشرة من النساء بينهن زوجات أبي سفيان ليُثِرْن حماسة الجند بأغانيهن الحزينة ودعوتهن إياهم إلى الانتقام.

ولم يكن جيش المسلمين يزيد على ألف، وهُزم المسلمون في هذه الغزوة، وحارب فيها محمد بشجاعة عظيمة، وأُصيب بعدة جروح وحُمل من الميدان. وقُتل في المعركة حمزة عمّ النبي ومضغت كبدَه هند أشهر زوجات أبي سفيان، وكان أبوها، وعمها، وأخوها، قد قُتلوا جميعاً في غزوة بدر، وكان حمزة نفسهُ هو الذي قتل أباها، ثم لم تكتفِ بهذا بل صنعت لنفسها من جلده وأظافره خلاخيل وأساور.

وظن أبو سفيان أن محمداً قد مات، وعاد منتصراً إلى مكة. وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة شُفي النبي واستطاع أن يهاجم

بني النضير، لأنهم أعانوا قريشاً على المسلمين وكانوا يأتمرون به ليقتلوه. وبعد أن حاصرهم ثلاثة أسابيع أذن لهم أن يهاجروا من المدينة على أن تأخذ كلُّ أسرة معها حِمل بعير. واستولى النبي على بعض ما كان لهم من بساتين النخيل الغنية، فكان بعضها له، ووزع ما بقي منها على المهاجرين. لقد كان محمد يرى أنه في حرب مع أهل مكة، وأن من حقه أن يؤمِّن نفسه بإبعاد الجماعات المعادية له عن جناحيه.

وعادت قريش وعاد أبو سفيان إلى مهاجمة المسلمين في عام ٦٢٦ بجيش يبلغ عشرة آلاف رجل يساعدهم يهود بني قُريظة مساعدة جدّية. ورأى محمد أنه لا يستطيع مقابلة هذه القوة الكبيرة في الميدان، ففضّل أن يدافع عن المدينة بحفر خندق حولها. وحاصرتها قريش عشرين يوماً، حتى فتّ في عضدهم المطرُ والعواصفُ، فعادوا إلى أوطانهم، وقاد محمد من فوره ثلاثة آلاف من المسلمين وهاجم بهم يهود بني قُريظة، فلما استسلموا خيّرهم بين الإسلام والموت.

وكان النبي في ذلك الوقت قد أصبح من أمهر القادة، فقد جهز في العشر السنين التي قضاها في المدينة خمساً وستين غزوة وسَرِيّة حربية قاد بنفسه سبعاً وعشرين منها، ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنّكاً، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السِّلم. وكان يشارك المهاجرين في الحنين إلى بيوتهم

وأُسرهم في مكة، ويشارك المهاجرين والأنصار جميعاً في الحنين إلى زيارة الكعبة، التي كانت في صباهم عزيزة عليهم وموضع إجلالهم.

وفي عام ٦٢٨ أرسل محمد إلى قريش يعرض عليهم الصلح، ويتعهد لهم بسلامة قوافلهم إذا رضوا أن يؤدّي شعائر الحجّ في موسمه. وأجاب زعماء قريش بأنهم يشترطون لقبول هذا العرض أن يمضي قبله عام كامل من السِّلْم، وأدهش محمد أتباعَه بقبوله إياه، ووقّع الطرفان شروط هدنة تدوم عشر سنين. وحدثت بعدئذٍ غارة على يهود خيبر في مساكنهم الواقعة في الشمال الشرقي من المدينة على مسيرة ستة أيام منها، ودافع اليهود عن أنفسهم بأحسن ما يستطيعون من دفاع، وسقط منهم في أثناء ذلك ثلاثة وتسعون رجلاً، ثم سلّم الباقون آخر الأمر، وسُمح لهم بالبقاء في أماكنهم يزرعون الأرض، على شرط أن يسلّموا جميع ممتلكاتهم ونصف محصولاتهم المستقبَلة إلى الفاتحين. ولم يُمَسَّ أحد من الباقين بسوء ما عدا زعيمهم كنانة وابن عمه فقد قُطع رأساهما وضُمّت صفيّة إلى نساء النبي. وفي عام ٦٢٩ دخل مسلمو المدينة، البالغ عددهم ألفين، مكة مسالمين، وانسحبت قريش إلى التلال لتجنّب الاحتكاك بالمسلمين، وطاف محمد وأتباعه في أثناء ذلك بالكعبة سبع مرات. ومسّ محمد الحجرَ الأسودَ، ثم نادى

ونادى بعده المسلمون: «لا إله إلا الله».

وكان لمسلك المسلمين المنفيّين، وحُسن نظامهم، ووطنيتهم، وتقواهم أعظم الأثر في نفوس أهل مكة، فأسلم من قريش عدد من ذوي المكانة من بينهم خالد بن الوليد وعمر اللذان صارا فيما بعد من قواد المسلمين. وعرضت بعض القبائل المجاورة على النبي أن يؤمّنها على دينها نظير مساعدتها إياه في القتال؛ ولما عاد إلى المدينة رأى أنه قد أصبح له من القوة ما يمكّنه من الاستيلاء على مكة عنوة.

ولم يكن قد مضى من الهدنة إلا عامان، ولكن إحدى القبائل المتحالفة مع قريش أخلّت بشروط الهدنة فهاجمت إحدى القبائل المسلمة (٦٣٠)[١]، فجمع النبي عشرة آلاف رجل وزحف بهم على مكة، وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين فسمح لهم بأن يدخلوا مكة بلا مقاومة. وكان جواب محمد جواباً كريماً، فقد أعلن عفواً عامًّا عن جميع أهل مكة عدا اثنين أو ثلاثة من أعدائه، وحطّم الأصنام التي كانت في داخل

---

(١) نقضت قريش الهدنة إذ ساعدت بالسلاح بني بكر ـ وكانوا قد دخلوا في عهد قريش ـ على بني خزاعة الذين دخلوا في عهد الرسول. بل إن نفراً من قريش قاتلوا بأنفسهم خزاعة في صفوف بني بكر، وجاء من خزاعة إلى الرسول من يطالبه بالنصر وفاء بالعهد، فكان لا بد من الاستعداد للمسير إلى مكة لفتحها.

الكعبة وحولها، ولكنه ترك الحجر الأسود في مكانه وأجاز تقبيله.

وأعلن أن مكة هي مدينة الإسلام المقدَّسة، وأعلن أنه لن يدخلها بعد اليوم كافر، وامتنعت قريش بعدئذٍ عن كل مقاومة مباشرة، وأصبح الرجل المضطهَد الذي هاجر من مكة منذ ثماني سنين صاحب الكلمة العليا في حياتها.

انتصار النبيّ

قضى النبي معظم العامين الباقيين من حياته في المدينة، وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر، فقد خضعت فيهما بلاد العرب كلها، بعد فتن قليلة الشأن، إلى سلطانه ودخلت في دين الإسلام. وجاء إلى المدينة كعب بن زهير، أعظم شعراء العرب في ذلك الوقت، وكان قد هجا النبي في بعض قصائده، وأسلم نفسه إليه، واعتنق الإسلام، فعفا عنه النبي. وأنشأ الشاعر قصيدة عصماء في مديح النبي أجازه عليها بُردته. وعاهد النبي المسيحيين في بلاد العرب، وأخذ على نفسه أن يحميهم وأن يكونوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم نظير ضريبة هينة، ولكنه نهاهم عن الرِّبا. ويقول المؤرخون إنه بعث الوفود إلى ملك الروم، وملك الفرس، وإلى أمير الحيرة وبني غسان، يدعوهم إلى الدين الجديد. وكان يشهد بعين

المستسلم الفيلسوف الحروب المشتعلة نارُها بين فارس وبيزنطية وما جرّته على الدولتين من خراب.

ولم يكن النبي مشرِّعاً، فلم يضع لأمّته كتاباً في القانون أو موجزاً فيه، ولم يَسِرْ في تشريعه على نظام مقرَّر، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف.

وكانت أعمال الحكومة تشغل وقته كله، فقد كان يُعنى أشدَّ العناية بكل صغيرة وكبيرة في شؤون التشريع والقضاء، والتنظيم المدني، والديني، والحزبي. وحتى التقويم نفسه قد عني بتنظيمه لأتباعه.

وتزوج النبي بعشر نساء، وكانت له اثنتان من السراري هنّ مبعث الدهشة والحسد والتعليق والمدح عند الغربيين.

ولكن علينا أن نذكر على الدوام أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين في العصر القديم، وفي بداية العصور الوسطى، جعلت تعدّد الزوجات، في نظر هؤلاء الساميين، ضرورة حيوية تكاد تكون واجباً أخلاقيًّا.

وكان تعدد الزوجات في نظر النبي أمراً عاديًّا مسلَّماً به لا غبار عليه، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير لا يبغي به إشباع الشهوة الجنسية. ويُروى عن عائشة حديث عن النبي مشكوك في صحته يقول فيه: «حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث:

الطِّيب، والنساء، وقُرّة عيني في الصلاة». ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البِرّ والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفّي عنهنّ أتباعه أو أصدقاؤه، وكان بعضها زيجاتٍ دبلوماسيةً كزواجه بحفصة بنت عمر الذي أراد به أن يوثّق صلته بأبيها، وكزواجه من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوّه القديم. وربما كان الدافعُ إلى بعضها أملَه في أن يكون له ولد، وهو أمل حُرم منه زمناً طويلاً. وكانت زوجاته كلهنّ ما عدا خديجة عقيمات، وكان هذا موضع السخرية بين أعدائه، ولم يبق من أبنائه الذين رُزقهم من خديجة إلا فاطمة. وقد رُزق من مارِية القبطية التي أهداها إليه نجاشي الحبشة، بولد اغتبط النبي بمولده أشدَّ الاغتباط، ولكنه مات بعد خمسة عشر شهراً من مولده.

وكثيراً ما ضايقه نساؤه بمنازعتهنّ، وغيرتهنّ، ومطالبهنّ، ولكنه أبى أن يجيبهنّ إلى مطالبهن الكثيرة، ووعدهنّ بالجنّة، وقضى بعض الوقت يعدل بينهن فيقضي ليلة عند كل واحدة منهن، ذلك أن سيد بلاد العرب كلّها لم يكن يملك بيتاً خاصًّا له.

وكانت حياة النبي غاية في البساطة. فقد كانت المساكن التي أقام بها واحداً بعد واحد كلّها من اللبن، لا يزيد اتساعها على اثني عشر أو أربعة عشر قدماً، ولا يزيد ارتفاعها على

ثمانية أقدام، سقفُها من جريد النخل، وأبوابُها ستائر من شَعر المعز أو وبر الجمال.

أما الفراش فلم يكن أكثر من حَشِيَّة تُفرش على الأرض ووسادة. وكثيراً ما كان يشاهد وهو يخصف نعليه، ويرقع ثوبه، وينفخ النار، ويكنس أرض الدار، ويحلب عنزة البيت في فنائه، ويبتاع الطعام من السوق.

وكان طعامه الأساسيّ التمر وخبز الشعير، وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان.

ولم يتعاطَ الخمر التي حرّمها هو على غيره.

وكان لطيفاً مع العظماء، بشوشاً في أوجه الضعفاء، عظيماً مهيباً أمام المتعاظمين المتكبرين، متسامحاً مع أعوانه، يشترك في تشييع كل جنازة تمرّ به، ولم يتظاهر قطّ بأبّهة السلطان.

وكان يرفض أن يوجَّه إليه شيء من التعظيم الخاص، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام، ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يجد لديه من الوقت والقوة ما يمكّنانه من القيام به لنفسه.

ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال رغم ما كان يَرِدُ إليه من الفيء وغيره من الموارد. أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل. وكان يخصّ الصدقات بالجزء

الأكبر من هذا المال، لكنه كان ككل الناس يُعنى بمظهره الشخصي ويقضي في تلك العناية كثيراً من الوقت، فكان يتعطّر ويكتحل، ويصبغ شعره، ويلبس خاتماً نُقش عليه «محمد رسول اللّه»، وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل. وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب.

وكان مرهف الحسّ إلى أقصى حد، لا يطيق الروائح الكريهة، ولا صلصلة الأجراس، أو الأصوات العالية.

وكان حلو الفكاهة، فقد قال مرّة لأبي هريرة، وكان يتردد عليه كثيراً: «يا أبا هريرة زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبًّا».

وكان محارباً صارماً، وقاضياً عادلاً في وسعه أن يقسو ويغدر، ولكن لا يفعل ذلك، وأعماله الرحيمة أكثر من أن تعدّ.

وقد قضى على كثير من الخرافات الهمجية كفقء أعين بعض الحيوانات لوقايتها من الحسد، أو ربط بعير الميت عند قبره.

وكان أصدقاؤه يحبّونه حبّاً يقرب من العبادة، وكان أتباعه يجمعون بصاقه أو شعره بعد قصّه، أو الماء الذي يغسل به يديه، لاعتقادهم أن في هذه الفضلات شفاءً لهم من ضعفهم أو مرضهم.

وقد أعانه نشاطُه وصحّتُه على أداء جميع واجبات الحب والحرب، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره، ويُقال أن يهود خيبر قد دسّوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحُمّيات ونوبات غريبة.

وتقول عائشة إنه كان يخرج من بيته في ظلام الليل، ويزور القبور، ويطلب المغفرة للأموات[1]، ويدعو اللّه لهم جهرة. ولما بلغ الثالثة والستين من عمره اشتدّت عليه هذه الحُمّيات، وظلّت الحُمّى تعاوده أربعة عشر يوماً بعد ذلك الوقت. وقبل وفاته بثلاثة أيام نهض من فراشه، ودخل المسجد وشاهد أحد صحابته يؤمّ المسلمين للصلاة بدله، فجلس متواضعاً إلى جانبه حتى أتمّ صلاته. وفي اليوم السابع من شهر يونيه توفي محمدّ في المدينة وذلك في عام ٦٣٢ م.

القرآن والأخلاق

القانون والأخلاق في القرآن هما شيء واحد، فالسلوك الديني يشمل أيضاً السلوك الدنيوي، وكل أمر موحًى به من عند الله. والقرآن يشمل قواعد للآداب، وصحة الجسم،

(١) يشير المؤلف إلى قول الرسول في أوائل مرضه الذي توفي فيه: «إني قد أُمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع» (مدافن أهل المدينة)، ثم ذهب فعلاً واستغفر لهم. (راجع سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٣٦٦).

والزواج والطلاق، ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان، والتجارة، والسياسة، والربا، والدَّين، والعقود، والوصايا، وشؤون الصناعة والمال، والجريمة، والعقاب، والحرب والسلم.

ولم يكن محمد يحتقر التجارة، فقد كان هو نفسه في صباه تاجراً، وحين كان سيّد المدينة كان يبتاع بعض السلع جملةً ويبيعها أشتاتاً، ويربح من هذا البيع دون أن يرى فيه عيباً أو مَنْقَصَة. وكان في بعض الأحيان يدلِّل على السِّلَع بنفسه.

ولغة القرآن غنيّة بالتشبيهات. وفيه وعد بالثراء في الدنيا للمسلمين الصالحين، وإنذار بعذاب أليم للمخادعين والكاذبين من التجار. وفي الأحاديث النبوية تنديد بالمحتكرين والمضاربين الذين يحتجزون السلع ليبيعوها بأغلى الأسعار، وحضّ على إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، وأمر لصاحب العمل بأن يؤدّي للعامل أجره قبل أن يجفّ عَرَقُه. ويحرِّم القرآنُ الربا أخذاً أو إعطاء (سورة البقرة: ٢٧٥، وسورة آل عمران: ١٣٠).

ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فَرَضَ على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء. وكان يحضّ كل موصٍ بأن يخصّ من ماله جزءاً للفقراء، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصّصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير (سورة النساء: ٨ و٩). وقد قبل محمد كما قبل

معاصروه نظام الاسترقاق على أنه من قوانين الطبيعة، ولكنه بذل كل ما في وسعه لتخفيف أعباء الرقّ ومساوئه.

وكذلك رفع من مقام المرأة في بلاد العرب، وإن لم يَرَ عيباً في خضوعها للرجل، وهو يهيب بالرجال ألا يكونوا عبيداً لشهواتهم.

وهو يحرِّم على النساء ولاية الحكم، لكنه يسمح لهنّ أن يحضرن الصلاة في المساجد، وإن كان يرى أن بيوتهن أولى بهن. وكن إذا جئن إليه للصلاة أحسنَ معاملتهنّ ولو أتين معهن بأطفالهنّ. وقد رُوي عنه أنه كان إذا سمع بكاء طفل في أثناء الصلاة قصر خطبته حتى لا يؤذي بِطولها أُمَّه.

وقضى القرآن على عادة وأد البنات (سورة الإسراء: ٣١)، وسوّى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي، وجعل من حقّها أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها، وأن ترث، وتتصرف في ما لها كما تشاء (سورة النساء: ٤ و٣٢).

وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع. وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر، ومنع زواجهن بغير إرادتهن.

وفي القرآن آية يأخذها بعضُهم حجَّةً على حَجْب النساء وهي «وَقَرْنَ في بيوتكنّ ولا تَبرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهليّةِ الأُولى» (سورة الأحزاب: ٣٣)، ولكن الآية إنما تؤكد النهي عن التبرّج. ويُروى أن النبي أجاز للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن. أما زوجاته هو فقد طلب إلى أتباعه ألا يكلّموهنّ إلّا من وراء حجاب. وفيما عدا هذه القيود فإن نساء المسلمين كنّ يخرجن من البيوت بكامل حريّتهن.

وبعد، فإن المناخ من العوامل التي تؤثر في الأخلاق الفردية. ولعل حرارة الجو في بلاد العرب كانت من أسباب تقوية الغريزة الجنسية والنضج المبكر، ولهذا يجب التسامح بعض الشيء فيما نراه من نزعات الرجال في هذه الناحية في البلاد التي يطول فيها فصل الحر. ولقد كانت الشرائع الإسلامية تحرص على طلب العفّة من الرجال والنساء قبل الزواج، وزيادة الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج. ولهذا حتّم القرآن الاستعفاف قبل الزواج (سورة النور: ٣٣) وأوصى النبي بالصيام للاستعانة على هذا الاستعفاف.

ويشترط الدين الإسلامي رضاء الخطيبين لإتمام عقد الزواج. فإذا تم هذا الرضاء بشهادة الشهود العدول وأدّى العريس مهر عروسه، كان ذلك كافياً لإتمام العقد سواء رضي بذلك آباء العروسين أم لم يرضوا، إلا في الأبكار.

وقد أُجيز للمسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية، ولكنه حرّم عليه أن يتزوج من وثنية أو مشركة. وعدم الزواج في الإسلام، كما هو في الدين اليهودي، إثم، والزواج فيه فريضة محبَّبة إلى اللَّه (سورة النور: ٣٢).

وأجاز الإسلام تعدد الزوجات ليعوّض بكثرة النسل نسبة الوفيات العالية بين الذكور والنساء على السواء، ولطول فترة النفاس، وما يحدث في البلاد الحارة من نقص سريع في قوة الإخصاب. ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث يَزِدْنَ على أربع وإن كان النبي نفسه قد تجاوز هذا العدد. وحرّم الإسلام التسرّي (سورة المعارج: ٢٩ و٣١).

وبعد أن تسامح الإسلام مع الرجل إلى هذا الحد فمكّنه بتعدد الزوجات من إشباع غريزته الجنسية إشباعاً حلالاً حرّم الزنى أشدَّ التحريم، فجعل عقوبة الزاني والزانية مائة جلدة (سورة النور)، لكنه اشترط لتوقيع هذه العقوبة ثبوت الزنى بشهادة أربعة من الشهود.

ونهى القرآن فضلاً عن هذا عن رمي المحصنات فقال: ﴿ والذين يرمون المُحْصَنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شُهَداء فاْجلِدوهم ثمانينَ جلدةً ولا تقبلوا لهم شهادةً أبداً ﴾ (سورة النور: ٤). وقد قلّ الاتّهام بالزنى بعد نزول هذه الآية.

وأباح القرآن الطلاق للرجل. وللمرأة أن تطلّق نفسها من زوجها بأن تردّ له صَداقها (سورة البقرة: ٢٢٩)؛ لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلّق زوجته كما كان مباحاً له في أيام الجاهلية[١]، فإن النبي لم يكن يشجّع عليه. ويُروى عنه أنه قال إن «أبغض الحلال إلى اللّه الطلاق». هذا إلى أن القرآن نفسه يحضّ على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين: ﴿ وإن خِفْتُم شِقاقَ بينهما فآبعثوا حَكَماً من أهله وحَكَماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بينهما ﴾ (سورة النساء: ٣٥). ولا يصبح الطلاق نهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل. ولكي يرغم الزوج على أن يطيل التفكير في أيمان الطلاق قبل صدورها، فإن الإسلام لا يبيح بعد ذلك للرجل أن يردّ مطلَّقته إلى عصمته إلا إذا تزوجت من رجل آخر ثم طُلِّقت منه.

ولا يباح للزوج أن يقرب زوجته في المحيض، وليس ذلك لأنها «نجسة» في ذلك الوقت، وإن كان يطلب إليها أن تتطهر بعده قبل أن يقربها زوجها.

---

(١) الصحيح في هذا أنه لما كان الإسلام حريصاً على أن تكون العشرة بين الزوجين بالمعروف، فإن العشرة إن ساءت وأصبح من الخير لهما الانفصال كان ذلك بالطلاق برضاء الزوجين بلا مقابل أو بمقابل.

والنساء حرث للرجال فلهم أن يأتوهن أنى شـاءوا. وينبغي للزوجة أن تقرّ للزوج بتفوقه عليها، ومن ثم أن تكون له عليها القوامة وحق الطاعة، فإذا عَصَتْه كان له أن يهجرها (سورة النساء: ٣٤). والمرأة التي تتوفى وزوجها راضٍ عنها تدخل الجنة[١].

لكن ما فقدته النساء من حقوق قد نلن أكثر منه بفصاحة لسانهن، ورقّة قلوبهن، ومفاتنهن، شأنهن في هذا شأن النساء في العالم كله. وقد حدث مرة أن لام عمر بن الخطاب زوجته لأنها كلّمته بلهجة رأى فيها شيئاً من قلة الاحترام، فما كان منها إلا أن أكدت له أن هذه هي اللهجة التي تخاطب بها ابنته حفصة وغيرها من أزواج النبي رسولَ اللّه. فذهب عمر من فوره ولام على ذلك حفصة وزوجة أخرى من أزواج النبي. فقيل له إن هذا ليس من شأنه، وخرج عمر غاضباً. وسمع النبي بهذا فأثار ضحكه.

وكان النزاع يقوم في بعض الأحيان بين النبي وبعض أزواجه كما يحدث عند غيره من المسلمين، ولكنه كان على الدوام يعزّهن، ويظهر لهن ولغيرهن من النساء المسلمات ما يليق بهن

(١) دخول الجنة مشروط بفضل اللّه تعالى، والعمل الصالح، وقيام المرء بما عليه من حقوق للّه ولبني الإنسان، ومـن هـذا بلا ريب حق الزوج على زوجته، وليس معنى هذا أن الزوجة التي تتوفى وزوجها راضٍ عنها تدخل الجنة وإن لم تقم بما عليها من واجبات أخرى.

من عواطفَ طيّبة. ويُروى عنه أنه قال إن المرأة الصالحة أثمن شيء في العالم. ويذكِّر اللّه الناس في القرآن مرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهاً ووضعنهم كرهاً وأرضعنهم أربعة وعشرين أو ثلاثين شهراً. ويُروى عن النبي أنه قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات».

القرآن والدين والدولة

إن أعقد ما يلاقيه المصلح من المشاكل مشكلتان:

أولاهما أن يجعل التعاون بين الناس محبوباً جذاباً.

والثانية أن يحدّد سعة الكلّ والجماعة التي يشير عليها بالتعاون الكامل.

والأخلاق المثالية تطلب المعاونة التامة بين كلّ جزء وبين كلٍّ كلّ - أي بين العالم أجمع وحياته الجوهرية ونظامه، أي اللّه سبحانه وتعالى. وفي هذه الدرجة من التعاون يصبح الدين والأخلاق شيئاً واحداً، لكن الأخلاق وليدة العادة وحفيدة القسر، وهي لا تنمّي التعاون إلا بين مجموعات مزوَّدة بالقوة، ومن أجل هذا كانت كل الأخلاق الواقعية أخلاقاً جماعية.

وقد تخطّت القوانين الأخلاقية التي جاء الإسلام بها حدود القبيلة التي ولد النبي بين ظهرانيها، ولكنها اقتصرت على الجماعة الدينية التي أنشأها. فلما تمّ له النصر في مكة وضع القيود على غارات النهب بين القبائل، وأشعر بلاد العرب كلها،

أي أنه أشعر بلاد الإسلام كلها في ذلك الوقت، معنى جديدا للوحدة، ووضع لها أفقاً للتعاون والولاء أوسع مما عرفته من قبل: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (سورة الحجرات: ١٠). وقللت العقيدة المشتركة ما بين الطبقات والأجناس من فروق، ولذلك يقول النبي: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة».

تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألّفت بين الأُمم المتباينة المنتشرة في قارّات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً، وهي لعمري أعظم معجزة للمسيحية والإسلام.

والمسلمون يعظّمون القرآن إلى درجة تقرب من العبادة، وقد كتبوا المصاحف وزيّنوها وبذلوا في سبيل ذلك كلَّ ما يستطيعون من عناية، مدفوعين إليها بحبهم له، وهو الكتاب الذي يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلّم القراءة، وهو المحور الذي يدور عليه تعليمُهم والذِّروة التي ينتهي بها هذا التعليم. وقد ظل أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرتهم، يستثير خيالهم، ويشكّل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال.

والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد، وأقلّها غموضاً، وأبعدها عن التقيّد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحرّراً من الوثنية والكهنوتية. وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى

المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحضّهم على اتّباع القواعد الصحية، وحرّر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسّن أحوال الأرقّاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض.

ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة، ويتحمّلوا قيودها، بلا شكوى ولا ملل، وبعثهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله. وقد عرَّف الدين وحدّده تحديداً لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله:

﴿ ليس البِرَّ أن تُوَلّوا وجوهَكم قِبَلَ المَشْرِق والمَغْرِب، ولكنّ البِرَّ من آمن باللّه واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المالَ على حبّه ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب، وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحينَ البأس، أولئك الذين صَدَقوا وأولئك هم المُتَّقون ﴾ (سورة البقرة: الآية ١٧٧).

ثانياً: أخلاق الرسول وصفاته على ألسنة معاصريه

قال عنه صهره، وابن عمّه، أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، عليه السلام:

«مستقرّه خير مستقرّ، ومنبته أشرف منبت في معادن الكرامة، ومما هو السلامة، قد صُرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثُنيت إليه أزمّة الأبصار، دفن الله به الضغائن، وأطفأ به الثوائر، ألّف به إخواناً، وفرق به أقراناً، أعزّ به الذلّة، وأذلّ به العزّة، كلامُه بيان، وصمتُه لسان»[1].

وكان ـ ص ـ نبيًّا أميناً، صادقاً حاذقاً، أصيلاً نبيلاً، مكيناً فصيحاً، عاقلاً فاضلاً، عابداً زاهداً، سخيًّا، قانعاً متواضعاً، حليماً صبوراً، موافقاً مرافقاً.

لم يخالط منجّماً ولا كاهناً. ولما قالت قريش: «إنه ساحِر»، عَلِمْنا أنه قد أراهم ما لم يقدروا على مثله؛ وقالوا: «معلِّم» لأنه قد أنبأهم بما يكتمونه من أسرارهم.

---

(١) الدليل على موضوعات نهج البلاغة، ص ٢٢٤.

فثبت صدقُه من حيث قصدوا تكذيبه، وكان فيه خصال الضعفاء، ومن كان فيه بعضها لا ينتظم أمره: كان يتيماً فقيراً، ضعيفاً وحيداً غريباً، كثير الأعداء، ومع جميع ذلك تعالى مكانُه، وارتفع شأنه فدلّ على نبوّته.

وكان الجلف (الغليظ) البدوي يرى وجهه الكريم فيقول: والله ما هذا وجه كذّاب.

وكان ـ ص ـ ثابتاً في الشدائد وهو مطلوب، وصابراً على البأساء والضرّاء وهو مكروب محروب، وكان زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، فثبت له الملك، وكان يشهد كل عضو منه على معجزة[1].

* * *

وقال واصفوه: كان رسول الله ـ ص ـ يتطيّب بالمسك حتى يُرى وميضُه في مفرقه، وكان يستجمر بالعود القماري، وكان ينفق على الطِّيب أكثر مما ينفق على الطعام. وكان لا يُعرض عليه طِيب إلّا تطيّب به ويقول: «هو طيّبٌ ريحُه، خفيف محملُه»، فكان يُعرف بالطِّيب إذا أقبل.

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٧٥.

وكان ـ ص ـ ينظر في المرآة ويرجِّل جُمّته ويمتشط، وربما نظر في الماء وسوّى جُمَّته فيه. ولقد كان يتجمّل لأصحابه فضلاً على تجمّله لأهله، وقال ذلك لعائشة حين رأته ينظر في ركوة فيها ماء في حجرتها ويسوّي فيها جُمَّتَه وهو يخرج إلى أصحابه، فقالت: «بأبي أنت وأمي تَتَمَرّأ في الركوة وتسوّي جُمَّتَكَ وأنت النبيّ وخيرُ خلقه»؟ فقال ـ ص ـ «إن الله تعالى يحبّ مِن عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهيّأ لهم ويتجمّل».

وكان لا يفارقه في أسفاره قارورة الدُّهن، والمِكْحَلَة، والمِقراض، والمِرآة، والمِسواك، والمُشْط. وكذلك الخيوط، والإبرة، والمِخصف، والسُّيور.

وكان يدهن شعره ويكره الشَّعَث، ويقول: «إن الدُّهن يذهب بالبؤس».

وكان ـ ص ـ إذا لبس ثوباً جديداً قال: «الحمد لله الذي كساني ما يوارى عورتي، وأتجمّل به في الناس». وكان إذا نزعه نزع من مياسره أولاً.

وكان ـ ص ـ إذا لبس ثيابه واستوى قائماً قبل أن يخرج، يقول: «اللهم بك استترتُ، وإليك توجّهتُ، وبك اعتصمتُ وعليك توكلتُ، اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي، اللهمّ اكفني ما أهمّني، وما لا أهتمّ به، وما أنت أعلم به مني، عزّ جارُكَ،

وجلّ ثناؤكَ، ولا إله غيرك، اللهم زوِّدني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجّهني للخير حيث ما توجّهت» ثم يندفع لحاجته.

وكان له فراش من أَدَم حشوُه ليف، وكانت له ـ ص ـ عباءة تُفرش له حيثما انتقل، وتُثنى ثنيتين، وكان ـ ص ـ كثيراً ما يتوسّد وسادة له من أدم حشوُها ليف ويجلس عليها، وكانت له قطيفة فَدَكيّة يلبسها يتخشّع بها، وكانت له قطيفة مصرية قصيرة الخَمْل، وكان له بساط من شعر يجلس عليه، وربما صلى عليه.

وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره، وكان يستاك إذا أراد أن ينام ويأخذ مضجعه.

وكان لا يذمّ ذوّاقاً، ولا يمدحه ولا يتنازع أصحابه الحديث عنده.

وكان المحدِّث عنه يقول: لم أر بعيني مثله قبله ولا بعده ـ ص ـ.

وما نازعه الحديث أحد حتى يكون هو الذي يسكت.

وما أكل متكئاً قطُّ حتى فارق الدنيا.

وما ردّ سائلاً حاجة إلا بها أو بميسور من القول.

وكان أخفَّ الناس صلاةً في تمام.

وكان أقصر الناس خطبة وأقلّهم هذراً.

وكان إذا أكل مع القوم كان أول من يبدأ وآخر من يرفع يده.

وكان إذا أكل مما يليه، فإذا كان الرطب والتمر جالت يده.

وإذا شرب شرب ثلاثة أنفاس، وكان يمصّ الماء مصًّا ولا يعبّه عبًّا.

وكان يمينه لطعامه وشرابه وأخذه وإعطائه. كان لا يأخذه إلا بيمينه ولا يعطي إلا بيمينه، وكان شماله لما سوى ذلك من بدنه.

وكان يحب التيمّن في كل أموره في لبسه وتنعّله وترجّله.

وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا تكلّم تكلّم وِتراً، وإذا استأذن استأذن ثلاثاً.

وكان كلامُه فصلاً يتبيّنه كلُّ من سمعه، وإذا تكلم رُئيَ كالنور يخرج من بين ثناياه، وإذا رأيته قلتَ: أفلجُ الثنيّتين وليس بأفلج.

وكان نظرهُ اللحظَ بعينه.

وكان لا يكلِّم أحداً بشيء يكرهه.

وكان إذا مشى كأنه ينحطّ من صَبَب.

وعن ابن عباس ـ ر ـ قال: كان رسول الله ـ ص ـ إذا مشى مشى مشياً يُعرف أنه ليس بمشي عاجز ولا بكسلان.

وكان ـ ص ـ إذا أكل الخبز واللحم خاصةً، غسل يديه غسلاً جيداً ثم مسح بفضل الماء الذي في يده وجهه.

وكان ـ ص ـ لا يأكل وحده ما يمكنه، ويقول: «ألا أنبئكم بشراركم»؟ قالوا: «بلى». قال: «من أكل وحدَه وضرب عبدَه ومنع رِفْدَه».

وكان ـ ص ـ إذا شرب بدأ فسمّى، وحسا حسوةً وحسوتين، ثم يقطع فيحمد الله ثم يعود، فيسمّي ثم يزيد في الثالثة ثم يقطع فيحمد الله. وكان له في شربه ثلاث تسميات وثلاث تحميدات، ويمصّ الماء مصًّا ولا يعبّه عبًّا، ويقول: «إن الكُبّاد من العبّ». وكان ـ ص ـ لا يتنفّس في الماء إذا شرب، فإن أراد أن يتنفس أبعدَ الإناء عن فيه حتى يتنفس.

وكان يشرب في الأقداح التي تُتّخذ من الخشب وفي الجلود، ويشرب في الخزف، ويشرب بكفّيه يصبّ الماء فيهما ويشرب ويقول: ليس إناءٌ أطيبَ من اليد.

وكان ـ ص ـ شديد الحياء والتواضع، يخصف نعله، ويرقّع ثوبه، ويحلب شاته، ويسير في خدمة أهله، ويحبّ الفقراء والمساكين، ويجلس معهم، ويعود مرضاهم، ويشيّع جنائزهم، ولا يحقّر فقيراً أوقعه الفقر وأشواه، ويقبل المعذرة، ولا يقابل أحداً بما يكره، ويمشي مع الأرملة وذي العبودية، ولا يهاب الملوك، ويغضب لله تعالى ويرضى لرضاه، ويمشي خلف أصحابه ويقول: «خلّوا ظهري للملائكة»!

وكان ـ ص ـ يركب البعير والفرس والبغلة والحمار ويعصب

على بطنه الحجر من الجوع. وكان ـ ص ـ يبدأ من لقيه بالسلام، ويتألّف أهل الشرف، ويكرم أهل الفضل، ويمزح، ولا يقول إلا حقًّا يحبه الله تعالى ويرضاه.

وقال أهل السِّيَر: وكان في بيته في مهنة أهله ويقطع اللحم، وكان يلطع أصابعه، ولم يتجشّأ قط، يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويقمّ البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويطحن مع الخادم، ويعجن مع زوجته، ويحمل بضاعته من السوق ويضع طهوره بالليل بيده، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده.

وكان ـ ص ـ يؤلّف الناس ولا ينفّرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويقول ـ ص ـ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بِشْرَه ولا خُلُقَه، يتفقّد أصحابه، ويعطي كل جُلَسائه نصيبه. من سأله حاجة لم يردَّه إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناسَ خلقُه وبسطُه، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الخلق سواء.

وكان يجيب من دعاه، ويقبل الهدية، ولو كانت كُراعاً، ويكافىء عليها، يغضب لربّه عزّ وجلّ ولا يغضب لنفسه، وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه. عُرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين، وهو في قلّة وحاجة

إلى إنسان واحد يزيد في عدد من معه، فأبى وقال: «إنّا لا نُستنصر من مشرك».

وكان ـ ص ـ دائمَ البِشْر، سَهْلَ الخُلُق، ليِّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا سبّاب ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي، ولا يؤيس منه.

وكان ـ ص ـ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يُخرج شيئاً من أطرافه، وكان حافظ الطَّرْف، نظرُه إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، وكان أعفَّ الناس، وأشدَّهم إكراماً لأصحابه، لا يمدّ رجليه بينهم ويوسع عليهم إذا ضاق المكان، ولم تكن ركبتاه تتقدمان ركبة جليسه.

وكان ـ ص ـ كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يُعرض عمّن تكلّم بغير جميل، وكان ضحكه تبسّماً، وكلامه فصلاً، وكان ضحك أصحابه عنده التبسّم، توقيراً له واقتداءً به، مجلسُه مجلسُ حلم وحياء وخير أمانة، لا تُرفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحُرُم، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير.

وكان ـ ص ـ يجلس حيثما انتهى به المجلس، ويأمر الناس بذلك، وكان يقول: «أعطوا المجالس حقّها»؛ قيل: «وما

حقُّها»؟ قال: «غضّوا أبصاركم، وردّوا السلام، وأرشدوا الأعمى، وامُروا بالمعروف، وانهَوا عن المُنْكَر».

ويقول ـ ص ـ: «إذا قام أحدكم من مجلسه، ثم يرجع فهو أولى بمكانه».

وكان ـ ص ـ إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه، لم يَقُل ما بال فلان يقول أو يفعل كذا، ولكنه كان يقول: «ما بال أقوام يصنعون كذا. . أو يقولون كذا». . حتى لا يشهّر باسم أحد.

وكان فصيحاً حتى قال أصحابه: «لم نَرَ من هو أفصح منك يا رسول الله»، فقال: «وما يمنعني؟ وإنما القرآن بلساني»؟

وقال ـ ص ـ: «أنا أفصح من نطق بالضاد بيدَ أني من قريش واستُرضعت في بني سعد».

وكان ـ ص ـ أوجزَ الناسِ كلاماً، وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد، وكان يتكلّم بجوامع الكَلِم، لا فضول ولا تقصير، كلامُه يتبع بعضه بعضاً، بين كلامه توقّف يحفظه سامعه ويَعيه، وكان جهير الصوت، أحسنَ الناسِ نغمةً، وكان طويل السكوت لا يتكلّم في غير حاجة ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحقّ.

وكان يأخذ بالحديث مع أصحابه، فعن زيد بن ثابت قال: «كنا إذا جلسنا إلى رسول الله، فأخذنا بحديث الآخرة، أخذ

معنا وإن أخذنا بحديث الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشرابَ أخذ معنا».

وقد وصفه عليّ أمير المؤمنين، فقال: «كان أجود الناس كفًّا، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمَّةً، وألينهم عريكةً، وأكرمَهم عشرةً، مَن خالطه فعرفه أحبَّه».

وكان يتحدّث مع الناس على قدر عقولهم ويقول: «إنّا معاشرَ الأنبياء أُمِرْنَا أن نكلِّم الناسَ على قَدْر عقولهم».

وكان إذا حدَّثَ الحديثَ، أو سئل عن أمر كرَّره ليُفْهِمَ، ويُفْهَمَ عنه، وكان حلوَ المنطق لا هَذْرٌ ولا نَزْرٌ.

وكان يمزح ولا يقول إلّا حقًّا.

وكان يحبّ المستضعفين، ويدعو لهم، ويجلس معهم.

وكان ـ ص ـ لا يسحب يده حتى يسحب صاحبُه يده. لا يتميز على أحد. وما قعد إليه رجلٌ قطُّ، فيقوم عنه حتى يقوم هو، ولم يُرَ مقدِّماً ركبتيه بين يدَي جليس له.

وكان يبدأ مَن لَقِيَهَ بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم يُرَ قطُّ مادًّا رجليه بين أصحابه، وربما جاءه شخص فبسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته.

وكان يكنّي أصحابه، ويدعوهم بأحبّ الأسماء إليهم، ولا يقطع على أحد حديثَه.

وكان لا يشير إلى أحد بإصبعه، وإنما بتمام يده.

وكان إذا تحدث إليه أحدٌ إلى جنبه، أقدم عليه بكلّ جسمه.

ولا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفّف صلاته، وسأله عن حاجته.

وربما يؤتَى له بصبي، لكي يباركَ له، فيبول الصبيُّ، فيصيح عليه بعضُ من رآه، فيقول ـ ص ـ: «لا تَزْمُروا بالصبيّ». ثم يدعه حتى يقضيَ حاجته. ثم إذا قاموا وانصرفوا عنه غسل ثوبه ودخل المسجد.

وقال جرير بن عبد الله: ما حجبني رسولُ الله ـ ص ـ قطُّ منذ أسلمت، ولا رآني إلّا تبسّم، وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويُجلسهم في حِجره، ويجيب دعوة الحرّ والعبد والأَمَة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويتبع الجنائز ويقبل عذر المعتذِر، ولا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس، ولا يأتيه أحد حرٌّ أو عبدٌ أو أمةٌ إلا قام معه في حاجته، لا فظّ ولا غليظ، لا يجلس متكئاً، ولا يتقدمه مطرق، ولا يُثبت بصره في وجه أحد، ويقبل الهديّة ولو أنها جرعة لبن، يغضب لربّه ولا يغضب لنفسه.

وعن أنس قال: كان رسول الله ـ ص ـ إذا فقد الرجلَ من

إخوانه ثلاثة أيام، سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده.

ورُوي أنه ـ ص ـ لا يدع أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتى يحمله معه، فإن أبى قال: تقدَّم أمامي وأدركني في المكان الذي تريد. ودعاه قومٌ من أهل المدينة إلى طعام صنعوه له ولأصحاب له خمسة فأجاب دعوتهم، فلما كان في بعض الطريق أدركهم سادسٌ فماشاهم فلما دَنَوْا من بيت القوم، قال ـ ص ـ للرجل السادس: «إن القوم لم يدعوك، فاجلس حتى نذكر لهم مكانك ونستأذنهم بك».

وعن عائشة ـ ر ـ أنها سُئلت: «كيف كان رسول الله ـ ص ـ إذا خلا في بيته؟»، قالت: «كان أليَن النّاس، وأكرم النّاس، وكان رجلاً من رجالكم إلاّ أنّه كان ضحّاكاً بسّاماً».

ورُوي عن سلمان، قال: دخلت على رسول الله ـ ص ـ وهو متكىء على وسادة، فألقاها إليّ ثم قال: يا سلمان ما من مسلم دخل على أخيه المسلم فيلقي له الوسادة إكراماً له، إلاّ غفر الله له».

وعن الصادق ـ ع ـ قال: كان رسول الله ـ ص ـ يقسم لحظاته بين أصحابه، فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسويّة، ولم يبسط رسول الله ـ ص ـ رجليه بين أصحابه قطُّ، وإن كان

يصافحه الرجل فما يترك رسول الله ـ ص ـ يده من يده حتى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه قال بيده فنزعها من يده.

ورُوي أنه كان خدم المدينة يأتون رسول الله ـ ص ـ إذا صلّى الغداة بآنيتهم فيها الماء يريدون التبرّك به فما يؤتى بآنية إلا غمس يده فيها، وربما كان ذلك في الغداة الباردة.

وعن ابن مسعود قال: أتى النبيَّ ـ ص ـ رجلٌ بكلمة فأرعد فقال ـ ص ـ: «هوّن عليك فلستُ بملك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القدّ».

وعن جرير بن عبدالله قال: لما بعث النبي ـ ص ـ أتيته لأبايعه، فقال لي: «يا جرير لأي شيء جئت»؟ قال: قلت: «جئت لأسلم على يديك يا رسول الله». فأخذ ثوبه، فلفّه فرمى به إليّ، وقال: «اجلس على هذا»، ثم أقبل على أصحابه فقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

وعن أنس قال: كان رسول الله ـ ص ـ أحسن النّاس خُلقاً[١].

وعن أبي عبدالله الجدلي قال: سألت عائشة: «كيف كان خُلُق النبيّ ـ ص ـ في بيته»؟ قالت: «كان أحسن النّاس خلقاً،

(١) الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٣٦٤.

لم يكن فاحشاً ولا متفحّشاً، ولا صخّاباً في الأسـواق ولا يجزي بالسّيّئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح» وقالت: «كان خلقه القرآن»!

وعن ابن عبّاس أنّه سأل كعب الأحبار: «كيف تجد نعت رسول الله في التّوراة»؟ فقال: «نجده محمّد بن عبدالله . . . ليس بفحّاش ولا بصخّاب في الأسواق، ولا يكافىء بالسّيئة، ولكن يعفو ويغفر»[٢].

وعن عبدالله بن الحارث قال: ما رأيتُ أحداً أكثر تبسّماً من رسول الله ـ ص ـ.

وعن عروة بن الزّبير عن عائشة قالت: ما خُيّر رسول الله ـ ص ـ في أَمرين إلاّ أَخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد النّاس منه.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٠.

الفهرس

المقدّمة ١١

لماذا يُجِلّ المسلمون رسول الله؟ ١٣

حقائق أساسيّة ينبغي تقريرُها ١٧

تساؤلات لا بدّ منها ٢٥

محتوى كتاب «رشدي» ٢٩

من هو «سلمان رشدي»؟ ٤١

الكتابَ في الصحافة الدّولية ٤٩

من يقف وراء الكتاب؟ وما هي جذور التُّهَم؟ ٥٧

مواقف غير المسلمين ٦٣

ردود الفعل الإسلاميّة ٦٧

كيف يجب التصرّف حيال أمثال هذا الكتاب؟ ٧٣

نبذة من السيرة النبويّة ومن أخلاق الرسول ٧٥

أولاً : موجز السيرة النبوية من كتاب «قصّة الحضارة» .. ٧٧

ثانياً : أخلاق الرسول وصفاته على ألسنة معاصريه .. ١١٣